

ليالي عاشوراء

السنة الرابعة



الشيخ علي حسن غلوم

ليالي عاشوراء

بقلم الشيخ

علي حسن غلوم علي

محرم ١٤٣٦ هـ

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

هاتف : ٢٥٤٢٧٩٩٧ - ٢٥٤٢٧٦٦٧

فاكس : ٢٥٤٢٨٥٥٨

Email: alwalaa@alwalaa.com



محتويات الكتاب

المقدمة	٥
١ - البدعة في عالم السياسة - القسم الأول	١٩
٢ - البدعة في عالم السياسة - القسم الثاني	٣١
٣ - البدعة في عالم الفكر	٤٥
٤ - كلمة الحق بين الكتمان والإفصاح	٥٩
٥ - الخذلان - القسم الأول	٧٥
٦ - الخذلان - القسم الثاني	٩٧
٧ - الجهاد - القسم الأول	١١٩
٨ - الجهاد - القسم الثاني	١٢٩
٩ - الجهاد - القسم الثالث	١٤٧
١٠ - أخلاق القوة	١٦٥

المقدمة

إن مناسبة الإحتفال بذكرى عاشوراء السنوية التي انطلقت وامتدّت منذ استشهاد الإمام الحسين بن علي «عليهما السلام» على أرض كربلاء المقدس وحتى عامنا هذا ١٤٣٦ للهجرة - وستمّت هذه الذكرى وستستمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها - هي مناسبة حية وناضجة في وجدان العالم الإسلامي، ولن أُبَالِغُ إن زعمت بأننا لن نجد مناسبةً أخرى، سواء أكانت إسلامية أو غير إسلامية، لها حضور وتفاعل جماهيري ووجداني مثل المناسبة العاشورائية.. ولن تكون.

سبب هذا التفاعل والاحتفال الجماهيري ذي الطابع التأييني بهذه المناسبة يعود لعدة أمور، من أهمها أن الإمام الحسين «عليه السلام» لم يخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً ضد حكم يزيد بن معاوية ولا لطلب الحكم لنفسه ومن منطلق الطمع بالموقع أو الرغبة الشخصية، فقد كان هدفه الذي أطلقه واتخذه شعاراً وعنواناً للخروج على الحاكم الظالم يزيد بن معاوية هو طلب الإصلاح في أمة جده

المصطفى محمد «صلى الله عليه وآله» والوقوف بوجه الانحراف المؤكد الذي تسير نحوه الأمة بسبب المخطط الأموي وحكم يزيد.. فلواستمر حكم يزيد ومن دون أن يعرّي الإمام الحسين «عليه السلام» ويفضح انحرافاته عن الإسلام المحمدي الأصيل، لكان مصير الإسلام الذي جاء به المصطفى «صلى الله عليه وآله» كمصير الأديان السماوية الأخرى التي حُرِّفت من قِبَل أتباعها.

ولكي يحمى الإمام الحسين «عليه السلام» الدين من الانحراف، وبلحاظ استخدام الأمويين سياسات التهيب والظلم والبطش تجاه معارضيتهم، والترويج لصورة بديلة ومشوّهة للإسلام، وانكفاء المسلمين وتراجعهم عن تحمّل مسؤولياتهم تجاه هذا الوضع المزري، ورضاهم بالصورة الظاهرية للتمسك بالإسلام والتي يبدو عليها الحكم من خلال ما يروّجه علماء السوء، حتى غدا المسلمون بلا حول ولا قوة، لكل هذا، فقد احتاج سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين «عليه السلام» أن يتّخذ موقفاً قوياً ويوقع هزة وجدانية لضمائر المسلمين تعادل هذا الانحراف الشديد والخطر الكبير الذي يهدّد وجود

الإسلام في العمق.. فلم يكن ذلك التحدي وفضح زيف هذا الحاكم وحكمه المنحرف ليتحقق إلا بالتضحية بأعلى وأعز ما يملكه الإنسان الذي يحمل روح المسؤولية ويُدرك حجم الأمانة الإلهية الملقاة على عاتقه.. وهي التضحية بنفسه وبأقرب الناس إليه.. بأسرته وعائلته وأنصاره.

وهذا ما قدّمه الإمام الحسين في يوم العاشر من محرم من سنة ٦١ للهجرة، وشاركه في ذلك أهله وأنصاره عن اختيار ووعي للهدف السامي، وهو منع انحراف الدين الإلهي الذي أنزله الله «عز وجل» للناس هدىً ورحمة.

هذا الحدث التاريخي، وبعد أن كان قصة موقف سجّله عشرات من الأفراد معظمهم سقطوا صرعى على أرض كربلاء وعلى رأسهم الإمام الحسين وأخيه أبي الفضل العباس وسبق الباقون من النسوة والأطفال أسارى على يد جيش يزيد، تحوّل إلى رمز خالد لكل الذين يتطلّعون إلى المبادئ الخالدة للنهضة الحسينية، ويلتقون مع سيد الشهداء - بصورةٍ أو بأخرى - في ما أعلنه وضّحى من أجله. ومن خلال استمرارية الاحتفال بذكرى استشهاد الإمام

الحسين بن علي «عليهما السلام» عند المسلمين، استمرّ إحياء القيم والشعارات الحسينية الساعية لحفظ الدين من الانحراف، ولم يعد بإمكان أحد من الناس أن يمنع الاحتفالية العاشورائية التأبينية ومظاهر الشعائر الحسينية، بل ستبقى تنمو وتنمو إلى أن يصل شعار «يا حسين» إلى كل زاوية من زوايا الكرة الأرضية.

وقد برز خطان وأسلوبان رئيسيان ومتوازيان في منهج وطريقة عرض النهضة الحسينية بأسبابها وأهدافها وأحداثها، وكلاهما يكمل الآخر.

فالأسلوب الأول والأشهر «الطريقة التقليدية» يغلب عليه الجانب القصصي والعاطفي والوعظي، وهو ما يميل إليه أغلب الخطباء، ويرغب فيه كثير من رواد المجالس الحسينية وجمهورها.

والأسلوب الآخر هو الأسلوب البحثي والعلمي الذي يعرض فيه الخطباء نهضة الإمام الحسين «عليه السلام» بأسبابها ونتائجها من خلال الاستغراق بدراسة وشرح مفردات الثورة وعناوينها وشعاراتها والتحقيق في تفاصيلها التاريخية، وذلك بشكل استدلالي وعلمي، مع ربط ذلك كله بالقرآن الكريم

وسيرة النبي وآله «عليهم السلام»، ومعالجة القضايا المختلفة السياسية منها والفكرية والثقافية من منظور تاريخي ومعاصر.. ولهذا الأسلوب جمهوره ومتابعوه أيضاً، إلا أنه من حيث العدد لا يملك امتداد وسعة الأسلوب الأول.

ولكن - وعلى كل حال - فإنَّ الأسلوبين ناجحان ومكملان لبعضهما البعض، ويحققان هدف إيصال رسالة النهضة الحسينية إلى الناس، بل وإحياء الذكرى ذاتها.

وقد اختار سماحة الشيخ علي حسن الأسلوب الثاني لإحياء ليالي عاشوراء، انطلاقاً من إحساسه بأنَّ الساحة الإسلامية - وخاصة الشيعة منها - تفتقر لهكذا نوع من الخطابة التي تعتمد على البحث العلمي الاستدلالي، لاسيما بلحاظ أنَّنا نحن نعيش في زمن فتنة طائفية شرسة نشبت بمخالبها في جسد الأمة، بسبب سوء فهم - أحيانا - لما يُطرح، أو بسبب طريقة الطرح من قبل البعض الذين قد لا يُحسنون الصّنع، أو قد يكون بسبب تعمّد البعض من المغرضين أو المندسّين أو المنافقين لتحويل المسائل الخلافية، وعرضها بصورة مشوّهة، لإشعال الفتنة بين

المسلمين، ولغاية في نفس يعقوب.. ولا أشك بأن هناك أطرافاً وجهاتٍ مشبوهة قد تكون مرتبطة بجهات لا تريد الخير للمسلمين، وتعمل جاهدةً لإثارة هذه الفتن.

لهذا ارتأى سماحة الشيخ علي حسن، وبروح المسؤولية الدينية والوطنية والأخلاقية، تقديم النهضة الحسينية بالأسلوب العلمي البحثي، وبعيداً عن الإثارة.

ولإيمانه بالعمل المؤسّساتي والجمعي، ومن منطلق حرصه على تحقيق محاضراته العاشورائية لأهدافها ووصولها بشكل مناسب للجمهور، فقد عمد لتشكيل فريق استشاري خاص، يعمل على تقديم المقترحات للعناوين والموضوعات التي ستُطرح في كل موسم، فتلتقي المجموعة قبل ذلك بفترة زمنية كافية، يتسنى له من خلالها التحضير للمادة التي تم الاتفاق عليها.. ثم تجتمع من جديد بعيد انتهاء الموسم، لتقييم المحاضرات وتبادل الأفكار ودراسة الإيجابيات والسلبيات ورصد انطباعات الجمهور، ومناقشة كل ذلك بهدف تطوير الخطاب وتجاوز السلبيات عند الإعداد والتنفيذ في الموسم القادم.

ولابد من الإشارة هنا إلى تميّز الشيخ علي حسن باعتماده الوسائل العلمية الحديثة، كالبروجكتر والتلفزيون وبرنامج «الباوربوينت»، بحيث تتماشى مع الأسلوب العلمي الذي اعتمده، وتُرسّخ المعلومات لدى الحضور، وتقلل من نسبة تشتت الأذهان. ومن خلال هذا كله، يشعر الحضور وكأنّهم في دورة دراسية خاصة، تتناول القضايا العاشورائية بحرفيّة. واستمراراً لهذا الأسلوب العلمي، فإننا نجد أنّ سماحته - وبعد الانتهاء من محاضراته العاشورائية - يمكن في المجلس ويفتح باب النقاش والحوار مع جمهوره، لاسيّما في ما يخصّ النقاط المبهمة التي تناولها في محاضراته، أو بعض تفاصيل المواقف والأحداث التي تم استعراضها بإيجاز أثناء المحاضرة رعايةً للوقت، أو حول بعض الاستنتاجات التي توصّل إليها وقدمها من خلال البحث، والتي لربّما بقيت غير مُقنعة أو غير واضحة بالنسبة إلى البعض.

هذه الجلسة تعدّ أسلوباً جديداً تميّز به سماحته، ويعطي الطرفين فرصة الاستفادة والتقييم للمادة التي قدّمت، ورفّع

أي لبس قد حصل لدى المستمع، وهو من بين الأمور المهمة - من وجهة نظري - التي يفتقدها المنبر الحسيني التقليدي، إذ كثيراً ما نجد بعض رواد هذا المنبر ينتقدون الخطيب في ما طرحه، وتثار لديهم علامات الاستفهام حول بعض المفاهيم والتفاصيل التاريخية التي عُرِضت، دون أن يجدوا الإجابة عليها من خلال الخطيب نفسه، لِيُفْتَح النقاش بعد ذلك في ما بينهم، ويتحوّل هذا النقاش في كثير من الأحيان إلى جدل عقيم لا يوصل إلى نتيجة أو جواب مقنع.

إنَّ أهمية هكذا جلسات حوارية مع الخطيب أو المحاضر تتمثّل في أنها تساعد على رفع الإشكالات العالقة في الأذهان، وترفع سوء الفهم الذي قد يبرز من خلال اختلاف وجهات النظر، أو القصور في العرض، أو لضيق الوقت، كما تُغلق الباب أمام الساعين للتكسّب - فحسب - من خلال المنبر الحسيني الشريف.

ويُضاف إلى الإيجابيات السابقة لاعتماد الشيخ علي حسن لهذا الأسلوب العلمي، أنه يمكن من نشر أبحاثه

ومحاضراته التي قدّمها في الموسم من خلال وسائل الاتصال والمعلوماتية الحديثة، من قبيل موقع «اليوتيوب»، وهذا ما يتم - فعلاً - ليلةً بليلة بعد الانتهاء من المحاضرة حيث تُنشر من خلال هذه الوسائل، لتصل إلى المهتمين والمتابعين، كما يتحوّل إلى مادة ورقية مكتوبة في صورة إصدار سنوي يقدّمه القائمون على مسجد سيد هاشم بهبهاني - وهو المسجد الذي يؤمّ فيه سماحته المصلّين في الجمعة والجماعات - تحت عنوان «ليالي عاشوراء»، ومن ثمّ نشره وتوزيعه بصورة مجّانية، ليتسنى الرجوع إلى مضمون المحاضرات من قبل المهتمّين والباحثين.

لقد قدّم الشيخ علي حسن مادّة قرآنيّة دسمة من خلال محاضراته بما يدعّم الأفكار المتعلقة بالنهضة الحسينية والقضايا المطروحة على بساط البحث.. وهذا في حدّ ذاته مكّن المستمعين من هضم الموضوع بصورة أمثل، وساعدهم على ربط القرآن الكريم بالواقع والحدث التاريخي ربطاً عملياً ومؤثراً، مما جعل مفردات القرآن ومعاني آياته راسخة في العقل.

ومع أنَّ هذا الأسلوب العلمي المعتمد ساعد في تحقيق هذه الأهداف، إلاَّ أنه بدا صعباً وغير ذي جدوى كبيرة عند شريحة اعتادت على الأسلوب النمطي والتقليدي المتعارف عليه، علاوة على الملاحظة التي أبدتها البعض حول عدم قدرة هذا الأسلوب على التحريك العاطفي واستدرار الدفعة، مما يُفقد المنبر الحسيني واحدة من أهم ميزاته وخصائصه. على كل حال، فإنَّ المسار المتوازي لأسلوبي العرض في المجالس المختلفة كفيلاً بتوفير البديل المناسب لكل مستمع، وعدم احتكار طريقة معيَّنة وإلغاء ما سواها.

لقد ابتلى عالمنا الإسلامي اليوم بمدَّعي العلم وطلاب الشهرة الذين لا شغل لهم سوى تكفير كل من يخالفهم في الرأي أو في الانتماء المذهبي، وبأفراد من مدَّعي العلم الذين يسيئون إلى مقدّسات الآخرين، لينتج عن هذا كله سقوط الأبرياء - باسم الإسلام وشعاراته - بين قتيل ومنحور ومشرّد ومضطهد، حتى أصبحنا أمة متناحرة متخلّفة تنخر في جسدها الصراعات.

ومن هنا تبرز الحاجة الملحة لعلماء ومثقفين وطلاب علم

يخافون الله ويملكون الوعي والمنطق والأسلوب بما يمكنهم من نشر الحقيقة بعيداً عن الإثارة والاستفزاز وتبادل التهم وقذف الآخرين ومقدساتهم بأقذع الكلمات. وحتى نصل إلى ما اختاره الله لنا حيث قال ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

وأخيراً - وفي آخر الكلام - نختم باستعادة مقولة الحوراء زينب بنت علي بن أبي طالب «عليهم السلام» عندما وصلت إلى مصرع أخيها الحسين فنادت: «اللهم تقبل منّا هذا القربان».. ونحن نقول متأسين بقولها ومقتدين به: «اللهم تقبل منّا هذا القليل».

سامي محمد العلي

صفر ١٤٣٦ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البدعة في عالم السياسة - ١

وردت اشتقاقات كلمة «بَدَعَ» في القرآن الكريم في أربع آيات، والآية الوحيدة التي لها علاقة بالموضوع هي قول الله «عز وجل»: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾^(١).

ومعنى ذلك أنهم ابتدعوا رهبانيةً لم يكتبها الله «عز وجل» عليهم، إما من حيث المبدأ، حيث لم تُكتب الرهبانية عليهم

أساساً.. وإما من حيث الطريقة والأسلوب المتَّبَع من قِبَلهم وذلك بالمغالاة فيها، أو ابتداع بعض التشريعات المتعلقة بها.. ومن الواضح أن الآية السابقة قد جاءت في موقع الذم.

❁ البدعة في الأحاديث:

أما إذا جئنا إلى الحديث الشريف، وجدنا عدّة محاور تعرضت لها النصوص المتعلقة بالبدعة، من أهمها:

المحور الأول: رفض البدعة، كما في الحديث المشهور عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (ألا وكل بدعة ضلالة، ألا وكل ضلالة في النار)^(٢).

المحور الثاني: مقاطعة أهل البدع، كما في الحديث المعتبر المروي عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه قال: (لا تصحبوا أهل البدع، ولا تجالسوهم، فتصيروا عند الناس كواحد منهم). قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: المرء على دين خليله وقرينه)^(٣).

المحور الثالث: مواجهة البدع، كما في الحديث النبوي: (إذا ظهرت البدع في أمتي فليُظهر العالم علمه، فمَن لم يفعل فعليه لعنة الله)^(٤).

المحور الرابع: بيان خطورة البدع، فعن أمير المؤمنين علي «عليه السلام»: (وما أحدثت بدعة إلا ترك بها سنة. فاتقوا البدع والزموا المهيعة) الطريق الواضحة (إن عوازم الأمور) ما تقادم منها وكانت عليه ناشئة الدين (أفضلها، وإن محدثاتها شرارها)^(٥).

✽ تشخيص البدعة:

ولكن السؤال المهم الذي يقفز إلى الذهن عند هذه النقطة: كيف يمكن تمييز البدعة عن السنة؟
فالتعريف البسيط للبدعة هو: (إدخال ما ليس من الدين في الدين).. ولكن كيف نعرف أن هذا الأمر بالذات ليس من الدين وأنه مُقَحَّم فيه؟ أي كيف نفرِّق بين ما هو بدعة، وبين ما ليس كذلك؟

وبالتالي كيف نفرق بين البدعة والاجتهاد؟ أو بين الابتداع والإبداع؟

فهل يصح أن نعتبر كل رأي جديد يظهر في الدائرة الدينية من البدع؟

هناك عدة فرضيات طرحها المحققون كمعايير للتمييز:

١- معيارية صاحب الرأي :

فإن كان صاحبُ الرأي الجديد غيرَ متخصص في هذا المجال، فسيكون رأيه بدعة، لأنه أساساً لا يملك الحق في تقديم الرأي في هذا التخصص. بينما لو كان مجتهداً في الفقه الإسلامي مثلاً وقَدَّم رأياً فقهياً جديداً، فإننا لا نملك أن نحكم على رأيه هذا بأنه بدعة، مهما كانت نظريته غريبة، أو غير معهودة.

ولكن فلنفترض أن غير المتخصص جاء بنظرية ضمن أدلةٍ طرحها، فحكمنا بأنها بدعة.. ثم جاء المجتهد في الفقه وقال بنفس النظرية، فهل يصبح ذلك الرأي إبداعاً بعد أن كان ابتداءً، لمجرّد أن صاحب الرأي قد تغيّر؟!

من الصعب قبول ذلك، ولعل في ما روي عن الإمام أمير المؤمنين علي «عليه السلام» إشارةً إلى ذلك حيث قال : (انظُرْ إلى ما قال، ولا تنظرْ إلى مَنْ قال) ^(٦).

٢- المعيارية الزمنية :

فكل أمر لم يعرفه علماء الإسلام من قَبْلُ أو لم يعمل به المسلمون حكمنا بأنه بدعة. بغضّ النظر عن كون صاحب

الرأي عالماً مفكراً، أو فقيهاً مجتهداً، أو غير ذلك .
ويلاحظ على هذا المعيار أن الدليل الذي يقدمه صاحب
الرأي لن تكون له قيمة مهما كان مُحكماً، ومن غير المنطقي
الالتزام بذلك . ثم ما السقف الزمني الذي نقف عنده لنُبذع
كل رأي جديد بعده؟ ومن الذي أعطى للسابقين حق
التفكير والإبداع، بينما سلبه من الذين جاؤوا من بعدهم؟
علاوة على أن الأخذ بهذا المعيار سيدفع إلى إغلاق باب
الاجتهاد إلا في ضمن مقولات المتقدمين، وهذا مرفوض .

٣- معيارية النص :

بأن نعرض الرأي على الكتاب والسنة، فإذا لم يرد فيه
نصٌ بخصوصه في الكتاب والسنة، ولم يشمله عام أو مطلق
فيهما، فهو حينئذٍ بدعة .
ولكن المشكلة في هذا المعيار أن لكل مجتهد تفسيراً
للآية أو الحديث، وعليه سيختلف التقييم، وبالتالي سنرجع
إلى المربع الأول .

٤- معيارية الدليل ، ويتم هذا بطريقتين :

الأول : اعتبار أن البدعة هي القول الذي لا يُقام عليه دليل

نَصِّي أو غير نَصِّي. ولأُمير المؤمنين «عليه السلام» كلمة في ذلك حيث قال : (وإنما الناس رُجُلان: مُتَّبِعُ شِرْعَةٍ، ومُبتَدِعُ بدعة، ليس معه من الله سبحانه برهانٌ سُنَّة، ولا ضياءٌ حُجَّة) ^(٧).

الثاني: ورود نص معتبر يدل على أن هذا الأمر بدعة، من قبيل الحديث المعتبر الذي رواه محمد بن مسلم ووزارة بن أعين والفضيل بن يسار عن الإمامين محمد بن علي الباقر وجعفر بن محمد الصادق «عليهما السلام»: (... وصلاة الضُّحى بدعة) ^(٨).

✽ حساسية الموضوع:

مما سبق يتضح لنا مدى حساسية الموضوع وتداخلاته، الأمر الذي يدفعنا من باب الالتزام بالقيم والأمانة العلمية إلى التريث في اتهام أصحاب المقولات الجديدة بالبدعية، وكما نحتاط في الطهارة وغيرها، نحتاط في اتهام الآخرين، ومن المفترض أن نحافظ على حق الاختلاف، بشرط ألا يؤدي هذا الاختلاف إلى التنازع المضعف للأمة، وأن يكون شعارنا مع مَنْ يخالف هذا الأسلوب هو دلالة قول الله «عز وجل»: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِذْنِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٩).

❁ سِعةُ دائرةِ البدعِ :

هل البدعة مختصة بالقضايا العبادية والدينية المحضة؟
فنحن - عادةً - عندما نتحدث عن البدعة تتبادر إلى أذهاننا
بعض الأحكام الشرعية المختلف فيها بين أتباع المذاهب
الإسلامية من قبيل : التكفير في الصلاة - صلاة التراويح -
قول حي على خير العمل في الأذان - قول الصلاة خير من
النوم في أذان الفجر - قول أمين في الصلاة - العمرة الرجبية
وغير ذلك .

وكذلك فإن البدعة - في معارفنا - تشمل قضايا من قبيل
تجسيم الله «عز وجل» وقَدَم القرآن الكريم وزيارة قبور الأنبياء
والتوسل بالأفراد وأمثال ذلك مما تتراشق به المذاهب
بتهمة البدعية . فهل البدعة خاصة بذلك ؟

للإجابة على هذا السؤال يجب أن نتذكر أولاً أن مهمة
الأنبياء «عليهم السلام» في تحمل الرسالة لا تقتصر فقط على
القضايا الإيمانية والعبادية والأخلاقية، بل كما قال «عز وجل» :
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ
لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعُ

لِلنَّاسِ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٠﴾ . فقد كان من مسؤولياتهم أن يدفعوا نحو الحكم وإدارة أمور مجتمعاتهم بالعدل والقسط، سواء أكانوا هم الحكام، كداود وسليمان ومحمد «عليهم السلام»، أم غيرهم كطالوت وذو القرنين .

وهذا ما دلت عليه بعض النصوص التي تحدثت عن البدعة، من قبيل ما جاء في كتاب الإمام علي «عليه السلام» إلى معاوية: (وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضى، فإن خرج من أمرهم خارج بطعنٍ أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على أتباعه غير سبيل المؤمنين) ^(١١) .

فالإمام يتكلم عن الحكم وطريقة اختيار الحاكم، والبدعة هنا متعلقة بهذا الشأن السياسي .

وهكذا نجد الإمام «عليه السلام» يتحدث عن البدع السياسية وتأثيرها في حدوث الفتن في المجتمعات، قال: (إنما بدء وقوع الفتن أهواءٌ تُتَّبَعُ، وأحكامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ، وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالاً، عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ) ^(١٢) .

✽ كتاب الإمام الحسين :

ومن هنا نفهم ما جاء في كتاب الإمام الحسين «عليه السلام» الذي أرسله إلى بعض كبار شخصيات البصرة يستنصرهم لمساندته في مشروع الثورة، وهو بعدُ في الحجاز، ويتضمن حديثاً عن إحياء البدعة.

فعن أبي عثمان النهدي، قال: (كتب حسينُ مع مولى لهم يقال له: سليمان، وكتب بنسخة إلى رءوس الأخماس بالبصرة^(١٣) وإلى الأشراف؛ فكتب إلى مالك بن مسمع البكري، وإلى الأحنف بن قيس، وإلى المنذر بن الجارود، وإلى مسعود بن عمرو، وإلى قيس بن الهيثم، وإلى عمرو ابن عبيد الله بن معمر، فجاءت منه نسخة واحدة إلى جميع أشرافها: «أما بعد، فإن الله اصطفى محمداً على خلقه، وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه الله إليه وقد نصح لعباده، وبلغ ما أرسل به، وكنا أهله وأوليائه وأوصيائه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة، وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وقد أحسنوا

وأصلحوا، وتحرّروا الحق، فرحمهم الله، وغفر لنا ولهم. وقد بعثتُ رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فإنَّ السَّنةَ قد أُميتت، وإنَّ البدعةَ قد أُحييت، وإنَّ تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله.»

فكل من قرأ ذلك الكتاب من أشرف الناس كتمه، غير المنذر بن الجارود، فإنه خشي بزعمه أن يكون دسيساً من قبل عبيد الله، فجاءه بالرسول من العشيّة التي يريد صبيحتها أن يسبق إلى الكوفة، وأقرأه كتابه، فقدم الرسول فضرب عنقه.

وصعد عبيدالله منبر البصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فوالله ما تُقرن بي الصَّعبة^(١٤)، ولا يُقعقع لي بالشَّنان^(١٥)، وإني لنكلُّ لمن عاداني، وسِمٌ لمن حاربني، أنصفَ القارّةَ من رامها^(١٦). يا أهل البصرة، إنّ أمير المؤمنين ولّاني الكوفة وأنا غادٍ إليها الغداة، وقد استخلفتُ عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان، وإياكم والخلاف والإرجاف، فوالذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلافٌ لأقتلنّه

وعريفه ووليّه^(١٧) ، ولأخذن الأدنى بالأقصى حتى تستمعوا لي، ولا يكون فيكم مخالف ولا مُشاقّ، أنا ابن زياد، أشبهته من بين مَنْ وَطِئَ الحَصَى، ولم ينتزعني شَبَهُ خَالٍ ولا ابنِ عَمٍّ»^(١٨).

مِنَ البَيِّنِ من جوّ الرسالة أن مراد الإمام إن لم يكن البدع السياسية على وجه الخصوص، فعلى الأقل كان قاصداً لها كمفردة من مفردات البدع التي عمل على نشرها بنوأمية خلال فترة حكمهم.

وستتضح الصورة أكثر حينما نفصل الحديث حول البدع السياسية في القسم الثاني من الموضوع بإذن الله «عز وجل».



المصادر والتعليقات الختامية:

- ١- سورة الحديد: ٢٧.
- ٢- المجلسي: بحار الانوار، ج: ٢، باب: ٣٢، ح: ١٢.
- ٣- الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح: ١٥٦١٠.
- ٤- المجلسي: بحار الانوار، ج: ٢، باب: ١٣، ح: ٣٥.
- ٥- الرضي: نهج البلاغة - الخطبة ١٤٥.
- ٦- الآمدي: غرر الحكم، الحكمة ١٧٤.
- ٧- الرضي: نهج البلاغة - الخطبة ١٧٦.
- ٨- الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج: ٢، ص: ٨٧.
- ٩- سورة المائدة: ٢٨.
- ١٠- سورة الحديد: ٢٥.
- ١١- الرضي: نهج البلاغة - الكتاب ٦.
- ١٢- الرضي: نهج البلاغة - الخطبة ٥٠.
- ١٣- كانت البصرة قد قسّمت خمسة أقسام، ولكل خمس منها رئيس من الأشراف. فالخُمس الأول: العالية، والخُمس الثاني: بكر بن وائل، والخُمس الثالث: تميم، والخُمس الرابع: عبد القيس، والخُمس الخامس: الأزدي. انظر لسان العرب: مادة خَمَسَ.
- ١٤- يشبّه البصرة بناقة صعبة الانقياد وهي مع ذلك تحت قيادته وسيطرته بسهولة.
- ١٥- الشنان جمع شن، وهو القرية الخلق إذا قعقع نفرت منه الإبل؛ يضرب للرجل الشرس الصعب، لا يهدّد ولا يفزع.
- ١٦- أي أنه كفّ لهذه المهمة. القارة: قبيلة، وهم عُضَل والدیش ابنا الهون بن خُزَيمَة، وإنما سُمُوا قارة لاجتماعهم والتفافهم، وهم رُماة الحدق في الجاهلية، وهم اليوم في اليمن، ويزعمون أن رجلين التَقَيَا أحدهما قارَى، فَقَالَ القرى: إن شئت صارَعْتُكَ، وإن شئت سابقك، وإن شئت رَامَيْتُكَ، فَقَالَ الآخر: قد اخترت المراماة، فَقَالَ القارَى: قد أنصفتني، وأنشأ يقول:

قَدْ أَنْصَفَ الْقَارَةَ مَنْ رَامَاهَا إِنَّا إِذَا مَا فِتَّةً نَلَقَاهَا
نَرُدُّ أَوْلَاهَا عَلَى أَخْرَاهَا

- ١٧- عريف القوم نقييهم، وهو دون السيد. والولي هو السيد.
- ١٨- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج: ٣، ص: ٢٨٠-٢٨١.

البدعة في عالم السياسة - ٢

أرسى الإسلام عدة قواعد للسياسة وإدارة شؤون العباد،
ومن أهمها:

١- العدل: قال «عز وجل»: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا
مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(١). ومن هنا
كانت ركيزة حركة الإمام المهدي «عجل الله تعالى فرجه» هي بسط
العدل في الأرض، ففي النبوي المشهور بألفاظ مختلفة:

(لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً. قال : ثم يخرج رجلٌ من عترتي - أو من أهل بيتي - يملؤها قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وعدواناً) ^(٢) .

٢- المساواة أمام القانون: وهذا ما قرّره النبي «صلى الله عليه وآله» حين وقف في حجة الوداع في يوم عرفة وألقى خطابه المشهور الذي رسم من خلاله معالم الإسلام في الفكر والعبادة والسياسة والاجتماع والحقوق وغير ذلك فكان في ما قال : (الناسُ سواسية كأسنان المشط) ^(٣) .

٣- اعتماد أساس الكفاءة في اختيار الحاكم: والنصوص التي تشرح سمات هذه الكفاءة عديدة، ومن بينها ما روي عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه قال : (لا تصلح الإمامة إلا لرجل فيه ثلاث خصال : ورعٌ يحجزه عن معاصي الله، وحلمٌ يملك به غضبه، وحسنُ الولاية على من يلي، حتى يكونَ لهم كالوالد الرحيم) ^(٤) .

٤- إحقاق الحقوق وإعطاء كل ذي حقٍّ حقه: دون أن تتدخل العناوين الدينية أو المذهبية أو العشائرية أو غير ذلك في تجاوز هذا المبدأ، وقد كان الإمام علي «عليه السلام» حاسماً

وحازماً جداً في ذلك، بدلالة عدة أحداثٍ ونصوص، من بينها ما جاء في رسالته إلى واليه على البصرة عبدالله بن عباس حيث قال له: (ووالله لو أن الحسن والحسين فعلاً مثل الذي فعلت، ما كانت لهما عندي هَوادة، ولا ظفراً من ياردة، حتى آخذ الحق منهما، وأزيع الباطل من مظلّمتها)^(٥).

٥- الحفاظ على الإسلام ومبادئه: ففي كتاب الإمام علي لمالك الأشتر حين ولّاه على مصر: (أمره بتقوى الله وإيثار طاعته واتباع ما أمر به في كتابه، من فرائضه وسُنّنه، التي لا يسعد أحدٌ إلا باتباعها، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعته، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه)^(٦).

٦- الحاكم في خدمة الشعب: على خلاف الصورة التي اعتادت عليها الشعوب، حيث تكون في خدمة الحاكم المستكبر عليهم والمستفيد من خيرات البلاد وممتلكات العباد لزيادة ثرواته واستمرار مُلكه المستبد، ضمن تبريرات باردة، تصوّر في هيئة القائد الضرورة الذي لا تصلح البلاد إلا تحت ظله. وفي كتاب الإمام علي لواليه على أذربايجان الأشعث بن قيس: (إنَّ عملك ليس لك بطُعمة، ولكنه في

عُنِقْكَ أمانة، وأنت مُسْتَرعى لِمَن فوقك، ليسَ لك أن تفتاتَ
 فِي رعيّة) بحيثَ تتصرّف بغير إذن فتَهْضِم حقوقهم (ولا تُخاطر إلا
 بوثيقة^(٧)) ودليل مُؤكّد تتوثق من خلاله أن تصرفك في هذا المال موافق
 لحكم الشرع.

٧- الرفق بالشعب: فكرسي الحكم له تأثير مشهود وفَعَال
 في نفخ روحية الاستبداد والاستكبار في شخصية الحاكم
 وتصرفاته، ولولم يكن كذلك في بداية حكمه، أو لم ينو ذلك
 أصلاً.. ومردّد ذلك إلى عدّة عوامل من بينها فخامة الأجواء
 المحيطة به، وكثرة التصفيق والتهليل له، والثناء عليه مهما
 أخطأ أو قصّر أو أساء! الأمر الذي يستدعي المراقبة الدائمة
 والتنبيه المستمر كي لا يستغرق في هذه الحالة المرضية
 ويستسلم لآثارها وتبعاتها.. وفي كتاب الإمام علي «عليه السلام»
 لمالك الأشر: (وأشعر قلبك الرحمة للرعيّة والمحبة لهم
 واللفظ بهم)^(٨).

❁ بدع سياسية:

وعليه، فإن عدم الالتزام بذلك يُعد ابتداءً في الحكم..
 فالحاكم إذا لم يعمل بالعدل، فهو مبتدع لسياسةٍ مخالفةٍ

لسياسة الإسلام التي أقرّها القرآن المجيد وعمل بها النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله».. وإذا لم يُساو بين المسلمين في حقوقهم وميّز بينهم على أساس القومية أو القبلية أو غير ذلك فهو مبتدع لسياسةٍ مخالفةٍ لسياسة الإسلام.. وعندما يورث الحاكم الحكم لأحد أبنائه لمجرد أنه ابنه، لا على أساس المؤهلات والصلاحية لهذا المنصب فهو مبتدع لسياسةٍ مخالفةٍ لسياسة الإسلام.

✽ بين الحسن ويزيد:

ولذا لا نجد احتجاجاً لأحد على حكم الإمام الحسن المجتبي حين بويع بالخلافة من بعد أبيه علي «عليهما السلام»، إما التزاماً بالنص، أو من جهة الاختيار والمبايعة.. لأن ذلك كان قائماً على مبدأ الكفاءة والصلاحية.. بينما نجد أن الدنيا قامت ولم تقعد عندما سوّق معاوية لابنه يزيد ليكون حاكماً من بعده، من جهة تحويل الحكم إلى مجرد وراثة لا تعتمد على توفر المؤهلات اللازمة في الحاكم.

وقد روى المؤرّخون أنه: (عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد، فأرسل إلى عبد الله بن عمر مائة ألف درهم، فقَبِلَهَا،

فلما ذكر البيعة ليزيد قال ابن عمر: «هذا أراد؟! إنَّ ديني عندي إذن لرخيص». وامتنع.

ثم كتب معاوية بعد ذلك إلى مروان بن الحكم: «إني قد كُبرت سنِّي، ودقَّ عَظمي، وخشيتُ الاختلاف على الأمة بعدي، وقد رأيت أنَّ أتخيرَ لهم مَنْ يقوم بعدي، وكرهتُ أنَّ أقطعَ أمراً دون مشورةٍ مَنْ عندك، فاعرض ذلك عليهم، وأعلمني بالذي يردُّون عليك».

فقام مروان في الناس فأخبرهم به، فقال الناس: «أصاب ووفَّق، وقد أحببنا أن يتخيرَ لنا فلا يألُو». فلا يقصِّر في ذلك، ويبذل جهده في هذا السبيل (فكتب مروان إلى معاوية بذلك، فأعاد إليه الجواب يذكر يزيد، فقام مروان فيهم وقال: «إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يألُ، وقد استخلف ابنه يزيد بعده!»).

فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: «كذبتَ والله يا مروان وكذب معاوية! ما الخيار أردتُما لأُمَّة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هِرَقليَّة، كلَّما مات هِرقل قام هِرقل».

فقال مروان: «هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ

أَفْ لَكُمْ ﴿٩﴾ الآية». فسمعت عائشة مقالته فقامت من وراء الحجاب وقالت: «يا مروان! يا مروان!».

فأنصت الناس وأقبل مروان بوجهه. فقالت: «أنت القائل لعبد الرحمن إنه نزل فيه القرآن؟ كذبت! والله ما هو به ولكنه فلان بن فلان، ولكنك أنت فضض من لعنة نبي الله»^(١٠).

وقام الحسين بن علي فأنكر ذلك، وفعل مثله ابن عمر وابن الزبير^(١١).

✽ من أهداف نهضة الحسين:

ومن هنا ندرك أن من محركات الإمام الحسين «عليه السلام» في نهضته مواجهة البدع السياسية التي جاء بها الأمويون وأضفوا عليها لباس الشرعية، وكأنه «عليه السلام» نهض في ما نهض من أجله، استجابةً لأمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» القائل: (إذا ظهرت البدع في أمتي فليُظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله)^(١٢).

ونعوضه بشارة ووعد نبوي تحقق، ففي الحديث المعتبر عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله «عليه السلام» يقول: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (إنَّ عند كلِّ بدعة تكون من

بعدي يُكاد بها الإيمان) أي أن يمكر ويخدع أو يحارب بها الإيمان وأهله لكسره وإطفاء نوره (ولياً من أهل بيتي، موكلاً به) أي بالإيمان بأمر الله لحفظه ونصرته (يَذُبُّ عنه، ينطق بالهام من الله ويُعلن الحقَّ ويُنَوِّره، ويردُّ كيدَ الكائدين، يُعَبِّرُ عن الضعفاء) أي يتكلم عن جانب الضعفاء العاجزين عن دفع المكائد والشبهات ويدفعها عنهم لطلاقة لسانه وفصاحة بيانه وكثرة علومه وإضاءة برهانه (فاعتبروا يا أولي الأبصار وتوكلوا على الله) ^(١٣) .. وهكذا كان الحسين .

✽ خطبة الإمام الحسين :

ومن هنا فمن الخطأ أن نحجّم دلالة ما جاء في خطبة الإمام الحسين «عليه السلام» التي ألقاها في منطقة «البيضة» الواقعة جنوب الكوفة، في إطار البدع العبادية فقط .

وأما خبر الخطبة فكما يلي: (كان مجيء الحر بن يزيد ومسيره إلى الحسين من القادسية) جنوب غرب الكوفة (وذلك أن عبيد الله بن زياد لما بلغه إقبال الحسين بعث الحصين ابن تميم التميمي وكان على شُرطه، فأمره أن ينزل القادسية وأن يضع المسالح) المفارز والنقاط العسكرية للتفتيش (فينظم ما بين القُطُطْطانة إلى خَفَّان) كلاهما بالقرب من الكوفة في الناحية

الجنوبية منها وفي طريق سفر الحجاج قديماً (وقدِمَ الحر بن يزيد بين يديه في هذه الألف من القادسية فيستقبل حسيناً. قال : فلم يزل موافقاً حسيناً حتى حضرت الصلاة، صلاة الظهر، فأمر الحسينُ الحجاجَ بن مسروق الجعفي أن يؤذن، فأذن.

فلما حضرت الإقامة خرج الحسين في إزار ورداء ونعلين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «أيها الناس، إنها معذرة إلى الله عز وجل» وإليكم. إني لم أتكلم حتى أتني كتبكم وقدِمَت عليّ رسلُكم، أن أقدمَ علينا، فإنه ليس لنا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى. فإن كنتم على ذلك، فقد جئتمكم، فإن تُعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدمَ مصرَكم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين، انصرفُ عنكم إلى المكان الذي أقبلتُ منه إليكم».

قال : فسكتوا عنه وقالوا للمؤذن : أقم. فأقام الصلاة. فقال الحسين «عليه السلام» للحر : أتريدُ أن تصلي بأصحابك؟ قال : لا، بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك. قال : فصلى بهم الحسين. ثم إنه دخل واجتمع إليه أصحابه وانصرف الحر إلى مكانه الذي كان به...

فلما كان وقت العصر أمر الحسين أن يتهيئوا للرحيل ، ثم إنه خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر، وأقام فاستقدم الحسين فصلى بالقوم ثم سلّم وانصرف إلى القوم بوجهه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «أما بعد، أيها الناس، فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحقَّ لأهله يكن أرضى لله. ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان، وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم وقدمت به عليّ رسلكم، انصرفت عنكم».

فقال له الحر بن يزيد: «إنا والله ما ندري ما هذه الكتب التي تذكر. فقال الحسين: «يا عقبة بن سمعان، أخرج الخُرجين اللذين فيهما كتبهم إليّ».

فأخرج خُرجين مملوءين صحفاً، فنشرها بين أيديهم. فقال الحر: «إنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك. وقد أمرنا إذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نُقدمك على عبيد الله بن زياد». فقال له الحسين: الموت أدنى إليك من ذلك. ثم قال لأصحابه: «قوموا فاركبوا». فركبوا وانتظروا حتى ركبت

نساؤهم، فقال لأصحابه: «انصرفوا بنا». فلما ذهبوا لينصرفوا
حال القوم بينهم وبين الانصراف.

فقال الحسين للحر: «ثكلتك أمك! ما تريد؟». قال: «أما
والله، لو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل الحال التي
أنت عليها ما تركتُ ذكرَ أمِّه بالشكل أن أقوله كائنًا من كان،
ولكن والله ما لي إلى ذكرِ أمِّك من سبيل إلا بأحسن ما
يُقدر عليه». فقال له الحسين: «فما تريد؟». قال الحر: «أريد
والله أن أنطلق بك إلى عبيدالله بن زياد». قال له الحسين:
«إذن والله لا أتبعك». فقال له الحر: «إذن والله لا أدعك».
فترادًا القول ثلاث مرات، ولما كثر الكلام بينهما قال له
الحر: «إنِّي لم أؤمر بقتالك، وإنما أمرتُ ألا أفارقك حتى
أقدمك الكوفة. فإذا أبيتَ فخذ طريقاً لا تدخلك الكوفة ولا
تردك إلى المدينة، تكون بيني وبينك نصفاً، حتى أكتب إلى
ابن زياد، وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية إن أردت أن تكتب
إليه، أو إلى عبيدالله بن زياد إن شئت، فلعل الله إلى ذاك أن
يأتي بأمرٍ يرزقني فيه العافية من أن أبتلى بشيء من أمرك»...
عن عقبة بن أبي العيزار: إن الحسين خطب أصحابه

وأصحاب الحر بالبيضة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
«أيها الناس، إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال : «من رأى
سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً
لسنة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، يعمل في عباد الله بالإثم
والعدوان، فلم يُعَيَّر عليه بفعل ولا بقول، كان حقاً
على الله أن يُدخله مَدخله». ألا وإن هؤلاء قد لزموا
طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد،
وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله،
وحرّموا حلاله، وأنا أحقُّ مَنْ غَيَّرَ...»^(١٤) .

إنَّ الإمام «عليه السلام» ركّز في خطابه على كيفية الحكم،
وصفات وسلوكيات الحاكم، ومواجهة البدع المتعلقة
بذلك، وبالتالي فإنَّ البدعة التي أُحييت، والسنة التي
أُميتت مُتعلّقة بالفساد في الحكم.. بتوريث الحكم بصورة
باطلة.. بالظلم.. باتخاذ عباد الله خولاً.. بغضب الحقوق..
بالمجاهرة بالمعاصي، وغير ذلك من صور البدع السياسية
التي ضجّت منها الأمة الإسلامية حينذاك بسبب ممارسات
وسياسات بني أمية.

ولذا نهض الحسين «عليه السلام» ثائراً، ساعياً نحو إقامة حكم الله، والعمل بسنة رسول الله، ومحاربة البدعة، إلا أن أغلب الذين وعدوه بالنصر خذلوه.. فلما استقرَّ بكرِبلَاء محاصراً، وخير بين الذلة والموت، أثر القتل في سبيل الله والشهادة، ليكون الطَّفُّ في كل مشاهدته صدمةً للأمة تُخرجها من صمتها وذُلِّها، ولتواجه الباطل والظلم والفساد والبدعة.



المصادر والتعليقات الختامية:

- ١- سورة الحديد: ٢٥.
- ٢- أحمد بن حنبل: المسند ح ١١٦٢١.
- ٣- السرخسي: المبسوط، ج ٥، ص ٢٣.
- ٤- الكليني: الكافي، ج ١، ص ٤٠٧.
- ٥- الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٤١.
- ٦- الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.
- ٧- لرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٥.
- ٨- الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.
- ٩- تنمة الآية: ﴿أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ سورة الأحقاف: ١٧.
- ١٠- وفي تفسير ابن كثير في الآية أنها قالت: «والله ما هو به ولوشئت أن اسمي الذي نزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أبا مروان ومروان في صلبه».
- ١١- ابن الأثير: في الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٤١.
- ١٢- المجلسي: بحار الانوار، ج ٢، باب ١٣، ح: ٣٥.
- ١٣- المازندراني: شرح الكافي، ج ٢، ص ٢٨٩.
- ١٤- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٠٦-٣٠٨.

البدعة في عالم الفكر

(وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فإنَّ السُّنة قد أُميتت، وإنَّ البدعة قد أُحييت) ^(١) .. سيد الشهداء الإمام الحسين «عليه السلام» .

ذكرت مسبقاً أن البدعة لا تقتصر على مجال الأحكام الشرعية، كما أنها لا تقتصر على القضايا الدينية البحتة .
ومن هنا فإن الإمام الحسين «عليه السلام» في كلمته السابقة لم

يعنِ خصوص البدع الفقهية التي عادةً ما تتبادر إلى الذهن عند الحديث عن البدعة ومفرداتها، بل عنى البدع الفكرية والسياسية أيضاً.

✽ المشروع الأموي :

فقد عمد بنو أمية إلى التلاعب في المفاهيم الإسلامية والمفردات الإيمانية ما استطاعوا، مستغلين قوة السلطة والإرهاب، وممعنين في التمويه على الناس من خلال الاستفادة القصوى من الآيات المتشابهة، وعن طريق وضع الحديث وتحريفه.

وبالتالي كانوا مصداقاً حقيقياً وبارزاً لمُبْتَغِي الفتنة في قوله الله «عز وجل»: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾^(٢).

وكان أهم ما يشغلهم هو كيفية السيطرة على الأمة الإسلامية من خلال مسخ هويتها الحضارية، واستبدال القيم والمفاهيم الإسلامية بأخرى جاهلية، أو مستعارة

من أمم وديانات أخرى، أو مبتدعة على أيديهم، بحيث تحمل تلك البدائل خصائص ومقومات الدفع بالأمة إلى الاستسلام للوضع القائم، والتخلي عن مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير، واعتبار المخالف لذلك مارقاً على الدين.

✽ عقيدة الجبر :

من الأمثلة الخطيرة لما سبق هو نشر وترسيخ عقيدة الجبر وتتلخص هذه الفكرة المبتدعة في أن لكل إنسان قدراً يقدره الله «عز وجل»، بحيث يكون الفرد مسلوب الإرادة في الواقع، ولا اختيار له في ما يصدر عنه، أو ما يجري حوله، لأن هذا القدر محتوم، والإنسان ليس أكثر من آلة وأداة لتحقيق هذا المشيئة الإلهية، وهو بمثابة ريشة في مهبّ الريح، لا حول لها ولا قوة.

وبتعبير عمرو بن العاص وهو يتكلم عن بعض مجريات غزوة بدر الكبرى: (ولكنّ الله لم يرد أن نُسَلِمَ يومئذٍ، لكنّه أخرَ إسلامنا إلى ما أراد)^(٣).

هكذا وبكل بساطة، يتم التخلي عن مسؤولية الكفر ومحاربة

الإسلام، ويُلقى ذلك كله على عاتق التقدير الإلهي !
وهذه الفكرة ذات جذور جاهلية، فقد قال الله «عز وجل» :
﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا
حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا
بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ ^(٤) .

❁ هل من مبالغة؟

وقد يتصور القارئ في الوهلة الأولى أنَّ الحديث عن
خطورة هذه الفكرة المغلوطة أمرٌ مبالغٌ فيه، فما أكثر الأفكار
المغلوطة المنتشرة بين الناس دون أن تتسم بخطورة على
مستوى الفرد أو الأمة.

ولكن التآني في قراءة الموضوع يؤكد تلك الخطورة إلى
أقصى حد. وسأختار لبيان ذلك مقاطع من كتاب (نشأة
الفكر الفلسفي في الإسلام) للعالم الأشعري الدكتور
المصري المعاصر: علي سامي النشار.

قال في المجلد الأول من كتابه - الذي يعد من أهم
المصادر المعاصرة في القراءة التاريخية للفكر الإسلامي - عن

هذه البدعة والهدف منها: (إن كل ما يحدث على المسرح السياسي الإسلامي) مَنْ يَحْكُم .. مَنْ يُسَيِّرُ بالمكر .. الاغتيالات التي تنال المعارضة .. التنكيل بالناس .. الفساد المستشري .. وأمثال ذلك .. كله (إنما قُدِّرَ أزلًا) ^(٥) .

✽ بنوأمية، القدر المحتوم:

وقال في موضع آخر: (فإذا آمن المجتمع الإسلامي حينئذ بالمشيئة الإلهية التي لا راد لها، وبالقدر المحتم الذي لا فكاك له، سلب المجتمع الاختيار، ولم يعد له غير طريق واحد، الطريق الذي أراده بنوأمية للمسلمين) ^(٦) وهو الركون إلى هذا الواقع، والسمع والطاعة المطلقة للحاكم الظالم.

أي أنَّ ترسيخ هذه الفكرة لا يعني سوى أن بني أمية هم القدر المحتوم الذي يجب أن يستسلم له المجتمع ولا يُعَارِض ولا يُقاوم!

ثم قال في بيان النتيجة الخطيرة المترتبة: (وقد كاد المجتمع الإسلامي حينئذ أن ينهار حين سُلِبَت منه كل قوى الاختيار) ^(٧) .

وقد اعتمد الأمويون على «وعاظ السلاطين» في نشر هذه

البدعة، قال : (أعلن قراء الشام فكرة الجبر المطلق، وأنها هي التفسير الوحيد للنصوص القرآنية. فعلوا هذا إرضاء للخليفة المغتصب، وأمر الخليفة عمّاله في مختلف بقاع العالم الإسلامي بنشر الفكرة، وأخذ الناس بها، فليؤمن بها الكبير قسراً، ويضعها الصّغير، ويحبوها وعليها) ^(٨).

✽ محورية البصرة:

وكانت البصرة إحدى المحطات المهمة لبث هذه البدعة، فهي : (أموية كما يقولون، تدين بالولاء لبني أمية، حين أضفى بنو أمية المال وأغدقوه على كثير من رجالها، وعاش هؤلاء الأتباع عيشة الترف الخيالي، وشاعت الفاحشة بين هؤلاء، وانتشرت الحياة الرخية في قصور البصرة. كان أهلها أكثر المسلمين فساداً، تحللّوا من كثير من التكاليف، وارتوتوا من الفواحش المستحدثة، وشاعت الفكرة أنه قدّر علينا ولا محيص) ^(٩).

وبحسب النّشار فإنّ مما ساعد على أداء البصرة لهذا الدور ابتعاد طبقة الأغنياء والطبقة الممتازة من أهلها عن الالتزام بالشرعية الإسلامية الأمر الذي جعل (الشرعية فقط لتلك

الجماعة الكادحة الفقيرة^(١٠) .

كما أنها امتلكت في بُنيته الاجتماعية ما ساعد على ذلك، حيث كانت تستقطب الأعراق المختلفة من كل حذب وصوب، وكلُّ يحمل دينه وثقافته وخلفياته الفكرية، مما أدى إلى تغلغل تلك الأفكار والمعتقدات والبدع والخرافات بين المسلمين.

وللإمام علي «عليه السلام» أكثر من نص في ذم أهل البصرة، وذكر بعضها في نهج البلاغة، ولولم نقرأ الواقع التاريخي لهذه المدينة وأهلها، لربما لن نفهم خلفيات كلمات الإمام علي «عليه السلام» بشأنها، ومنها قوله: (أَخْلَاقُكُمْ دِقَاقٌ) فهي واهنة ضعيفة لا تمتلك ثباتاً في نفوسكم ولا عمقاً في وجدانكم (وَعَهْدُكُمْ شَقَاقٌ) إذ لا تلتزمون بالمواثيق والعهود (وَدِينُكُمْ نِفَاقٌ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ) مالح (المُقيّم بين أظهركم مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ) إذ يعيش في جوٍّ موبوء بالمعاصي فهو معرّض في كل لحظة أن يقع في الإثم (وَالشَّائِخُصُّ عَنْكُمْ) فيبتعد تاركاً مجتمعكم الأثيم (مُتَدَارِكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ)^(١١) .

❁ ردة فعل متطرفة:

وبالتالي وجدت فكرة الجبر والقدر موطأ قدم في البصرة،

فجاءت رَدَّةُ الفعل العلمية من بعض المخلصين من علماء الأمة.. وإنَّ أخطأ منهم مَنْ أخطأ في تفاصيل ما طرحوه، إلا أنَّ مُنطَلَقَهُمْ كان مواجهة ذلك الباطل الفكري والإيماني المؤدِّي إلى الباطل السياسي والاجتماعي.

من ردود الفعل هذه ما صدر عن «مَعْبَدَ الْجُهَنِيِّ» الذي يُعد أحد المتأثرين بالصحابي الجليل أبي ذر الغفاري.

قال د. النشار: (نشأ في المدينة وتلمذ على أبي ذر... كان في صحبة أبي ذر في رحلته المشهورة إلى الشام حين أنكر على معاوية والأموية في دمشق ثراءهم وترَفَهُم وتلاعِبَهُم ببيت المال)^(١٣).

ثم تحدث عن بداية ابتداع فكرة الجبر والقدر من قبل الأمويين وردَّة فعل الصحابي أبي ذر «رضوان الله عليه»: (وأعلن أبوذر نظريته أن المال مال المسلمين، ونتج عن هذا إعلان الأمويَّة لنظرية الجبر الإلهي المطلق، وأنَّ القَدْر الإلهي هو الذي فرض وجودهم على أعناق المسلمين وعلى بيت مالهم. ولاشكَّ أنَّ مَعْبَدًا كان يلحظ الأحداث مع أستاذه، وحين نفى عثمانُ أبا ذر، وأعادته إلى الحجاز، عاد معبد)^(١٣).

ومرّت الأيام ووجد معبد ضرورةً مواجهة بني أمية في واقعهم الظالم والفساد من خلال مواجهة الأفكار التي يُخدّرون بها المجتمع، ومن بينها عقيدة الجبر.

قال معبد - مستنكراً - في أوّل لقاء له بالحسن البصري في البصرة: (يا أبا سعيد، إنّ هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون أموالهم، ويقولون إنّما تجري أعمالنا على قدر الله) ^(١٤).

من الواضح عند معبد أنّ البدعة الفكرية الأموية ما هي إلا وسيلة لتبرير الواقع الفاسد، ولسلب إرادة المجتمع.

فواجه ذلك بفكرة على الضد منها، حيث اعتبر أنّ الإنسان مطلق الاختيار في أفعاله وإرادته، وهذه الفكرة وإن لم تصحّ على إطلاقها بهذه الصورة، إلا أنّها جاءت كردة فعل عنيفة لتلك البدعة الأموية.

فالمقرر عندنا أنّ الإنسان مختارٌ في أفعاله، دون أن ننفي الإرادة الإلهية والقضاء والقدر، من خلال خلق الإنسان والقوانين المودعة في الوجود، والإرادة الإلهية التي يمكنها أن تتدخل ... إلخ.

على أية حال، حققت الفكرة التي طرحها معبد الجهني عند مخالفي بني أمية - في المدينة المنورة - انتشاراً واسعاً. ثم انتقل معبد إلى البصرة لنشر أفكاره، ولعله تعمّد الذهاب إلى تلك المدينة التي اعتبرناها من أهم محطات الأمويين في نشر أفكارهم ليواجهها في معقلها.

ونجح في مهمته هذه، حتى قال الشيخ محمد زاهد الكوثري: (ودام مذهبه بين دهماء الرواة) الجماعة الكثيرة (من أهل البصرة، قروناً)^(١٥) وتبنّاها بعض طلابه والمتأثرين به، واستمرت كاتجاه رافض للبدعة الأموية.

✽ نهاية معبد :

وختم معبد الجهني مواجهته لبني أمية بالخروج مع محمد بن الأشعث في ثورته ضد الأمويين، وهي إحدى آثار وارتدادات الثورة الحسينية، وتم القضاء على تلك الثورة، وقُبض على معبد، وأودع سجن الحجاج الثقافي حيث عُدّب حتى مات تحت التعذيب عام ٨٠ هـ .

ومن حكايا سجنه أنه (أحضر عند الحجاج فقال له: «يا معبد، كيف ترى قسَمَ الله لك؟» قال: «يا حجاج، خلّ بيني

وبين قَسَمِ الله، فَإِنْ لم يكنْ لي قِسْمٌ إِلَّا هذا، رَضِيتُ به». فقال له: «يا معبد، أليس قَيْدُكَ بقضاء الله؟» قال: «يا حجاج، ما رأيتُ أحداً قَيْدَني غيرك، فأطلقَ قيدي، فَإِنْ أدخَلَه قضاءُ الله، رَضِيتُ به»^(١٦).

وكعادة الجلاوزة، فإنهم استعملوا وعَظَهم لَاتِّهام مناوئهم بالانحراف عن الإسلام، وأنَّهم يحملون نوايا خبيثة تجاه الأمة، ووسموهم بأبشع الصفات كالارتداد والزندقة، وقد قال أحدهم مُتهماً معبداً: (إِنَّ أَوَّلَ مَنْ نطق بالقدر رجلٌ من أهل العراق يقال له «سوسن» كان نصرانياً فأسلم، ثم تنصَّر، وأخذ معبداً عنه)^(١٧).

✽ سلب إرادة المجتمع:

ومما سبق يتضح إلى أي مدى ذهب الأمويون في اتجاه سلب إرادة المجتمع الإسلامي، ومن خلال بث البدع الفكرية... وكادوا أن يحققوا مبتغاهم.

ولذا أشار الإمام الحسين «عليه السلام» إليهم ببعض مواطن الخلل، والبدع التي وجدت لها مكاناً في نفوسهم، ومن ذلك قوله: (ويحكم يا شيعة آل أبي سفيان! إن لم يكن

لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون^(١٨) . فالعربيُّ كان يفتخر بحريّته، ويعاير - مَنْ أراد معايرته - بأنه عبدٌ مملوك، فأراد الإمام أن يُرجعهم إلى تلك الفكرة، ما داموا غير قادرين على الانطلاق في الاتجاه الصحيح من خلال مبادئ الإسلام وأخلاقياته، ليفكّوا الأغلال الأمويّة التي قيّدت إرادتهم الحرّة وسلبتهم قدرة الاختيار.

ولكن التأثير الأموي كان أكبر بكثير من أن يُعالج بالكلمات والتوجيه والنقد والخطابة.. لقد كانوا بحاجة إلى تلك الصدمة الهائلة التي تنزلُ عليهم كالصاعقة، فتحرّك الساكن، وتُزيل الغشاوة، وتكسر حاجز الرّهبة في قول الحق ومواجهة الباطل والفساد والمنكر.

ولذا صمّم الإمام الحسين «عليه السلام» على المُضيّ في طريق تحقيق تلك الصدمة الهائلة، من خلال المواجهة غير المتوازنة - عسكرياً - مع الجيش الأموي، ومن ثمّ استشهاده ومن معه على أرض المعركة، لتعقّب تلك الهزّة، هزّات وهزّات، وعلى مديات واسعة وطويلة.

لقد أعادت النهضة الحسينية وعيَ الحقيقة إلى الناس، بأنهم غيرُ مسلوبي الإرادة، وأنَّ آلَ أُمِّيَّة ليسوا بالقدر الأبديّ، وأنهم قادرون على تغيير الواقع متى ما صدقوا مع الله ومع أنفسهم، وأنَّ طريق التغيير لا تُعبّده إلا التضحيات، فدماؤهم ليست بأعلى من دماء الحسين «عليه السلام» وأنصاره.

فلم تهدأ الجماهير النادمة، والجماعات التي كانت تحمل شيئاً من وعي الحقائق، ومن الإحساس بالمسؤولية الدينية والاجتماعية والسياسية... إلى أن أدّت تراكمات الثورات إلى الإطاحة بالحكم الأموي بعد سنوات مريرة من المعاناة على كافة الصُّعد.



المصادر والتعليقات الختامية:

- ١- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ٢٨٠.
- ٢- سورة آل عمران: ٧.
- ٣- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٩٢.
- ٤- سورة الأنعام: ١٤٨.
- ٥- النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ١، ص ٣١٥.
- ٦- ن.م. ص ٣١٤.
- ٧- ن.م. ص ٣١٤.
- ٨- ن.م. ص ٣١٤.
- ٩- ن.م. ص ٣١٥.
- ١٠- ن.م. ص ٣١٥.
- ١١- الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٣.
- ١٢- ن.م. ص ٣١٨.
- ١٣- ن.م. ص ٣١٨.
- ١٤- صائب عبد الحميد: المذاهب والفرق في الإسلام، ص ٧٥.
- ١٥- ن.م. ص ٣٢٠.
- ١٦- ن.م. ص ٣١٩.
- ١٧- ن.م. ص ٣١٩.
- ١٨- الأمين: أعيان الشيعة، ج ١، ص: ٦٠٩.

كلمة الحق بين الكتمان والإفصاح

هناك مقولة مفادها: أن عند الشيعة العشرات من الأحاديث المروية عن الأئمة «عليهم السلام» الذي جاءوا من بعد الحسين والتي تأمر بالكتمان وعدم الإفصاح عن الرأي والتناغم مع الواقع الذي يعيشونه.. وأن هذا يُعد بمثابة الدليل على أن ما جرى في يوم عاشوراء كان بمنزلة التجربة العملية السلبية لأهل البيت بحيث أوصلتهم إلى قناعة بعدم تكرار التجربة

في المستقبل، وهذا ما دفعهم إلى التصريح بكل تلك الكلمات المطالبة بالكتمان والسلبية.

✽ من نصوص الكتمان:

ومن أمثلة تلك الأحاديث: ما رواه أبو حمزة بسند معتبر عن الإمام زين العابدين «عليه السلام»: (وددتُ والله أني افتديتُ خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحمٍ ساعديّ: النَّزَقُ، وقلةُ الكتمان) ^(١).

وعن الإمام محمد الباقر «عليه السلام»: (والله إنَّ أحبَّ أصحابي إليَّ أَوْعُهُمْ وَأَفْقَهُهُمْ وَأَكْتَمَهُمْ لحديثنا) ^(٢).

وعن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»: (... وكتمانهُ لسرِّنا جهادٌ في سبيل الله) ^(٣).

وعن القاسم بسند معتبر قال: (سمعت أبا عبد الله «عليه السلام» الإمام الصادق (يقول: خَلَقُ في المسجد، يُشْهَرُونَا وَيُشْهَرُونَ أَنفُسَهُمْ، أولئك ليسوا منا، ولا نحن منهم، أنْطَلِقْ فَأُداري وَأَسْتُرْ، فَيَهْتَكُون سِتْرِي، هتَكَ اللهُ سِتْرَهُمْ! يقولون: إمام، والله ما أنا بإمام إلا مَنْ أَطَاعَنِي، فَأَمَّا مَنْ عَصَانِي فَلَسْتُ لَهُمْ بِإِمَامٍ، لِمَ يَتَعَلَّقُونَ بِاسْمِي؟ أَلَا يَكْفُونُ اسْمِي مَنْ أَفْوَاهَهُمْ،

فوالله لا يجمعني الله وإياهم في دار) ^(٤) .

❁ ملاحظات نقدية:

إلا أن هذه المقولة غير دقيقة لعدة أسباب :
 أولاً، لم يُعهد عن أحد الأئمة إظهار الندم على خروج
 الحسين «عليه السلام»، أو أنه كان من الأجدر ألا يخرج.. كل ما
 هنالك أنه صدرت عن بعضهم تصريحات تقييمية لموقف
 الناس والخذلان الذي وقع منهم.. أما أن يكونوا قد صرّحوا
 بالندم لما جرى، وأنّ السكوت والكتمان كانا الخيار الأوّلى
 والأفضل للإمام الحسين، فهو ما لم يُؤثر عنهم.

ومن نماذج النصوص التقييمية لموقف الناس ما روي
 عن الإمام زين العابدين «عليه السلام» أنه قال : (أيها الناس :
 ناشدْتُكم بالله، هل تعلمون أنّكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه،
 وأعطيتُموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة، ثم قاتلتموه
 وخذلتُموه، فتبّاً لكم لما قدّمتم لأنفسكم، وسوأةً لرأيكم!
 بأية عينٍ تنظرون إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» إذ يقول لكم :
 قتلتم عترتي، وانتهكتم حرمتي، فلستم من أمتي).. ولما
 عرضوا عليه النصره قال «عليه السلام» : (هيئات هيئات، أيها

الغَدْرَةَ المَكْرَةَ ، حِيلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِ أَنْفُسِكُمْ ، أتريدون
أَنْ تَأْتُوا إِلَيَّ كَمَا أَتَيْتُمْ إِلَى آبَائِي مِنْ قَبْلُ؟ ^(٥) .

✽ لسان الحال :

نعم في بعض النتاجات الأدبية ما يُصَوِّرُ به الأمر وكأنَّ أهل البيت «عليهم السلام» قد ندموا على خروج الحسين واستشهاده، وأنَّ العقيلة زينب «رضوان الله عليها» أو الإمام علي زين العابدين قد أظهرَا الندم على الخروج، وأنهما تمنَّيا العودة إلى المدينة للحفاظ على سلامة الحسين، إلا أنَّ هذا التعبير بواقع الحال غيرُ سليم، ولا يقوم على دليل، بل الدليل قائمٌ على خلافه، وذلك من قبيل قول العقيلة زينب بُعيد استشهاد أخيها الحسين: (اللهم تقبَّلْ مِنَّا هذا القُرْبانَ) ^(٦) ، وقولها لابن زياد في مجلسه وقد حاول أن يسخر منها قائلاً: (كيف رأيتِ صنَعَ الله بأخيك وأهل بيتك؟) فأجابته قائلة: (ما رأيتُ إلا جميلاً. هؤلاء قومٌ كتبَ الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجِعهم، وسيجمعُ الله بينك وبينهم فتُحاجُّ وتُخاصِم، فانظر لِمَنْ الفلج يومئذ) ^(٧) ... بالتالي فلسان الحال لا يُمثِّل قيمة تاريخية يُستَدَلُّ بها.

ثانياً، من الضروري تقييم أحاديث الكتمان والمحافظة على الغموض في الرأي والموقف من خلال العرض على القرآن الكريم، إيماناً منا بمرجعية القرآن وتقديمه على الحديث .

✽ آيات الإفصاح:

وبين أيدينا آيات عديدة تأمر بالإفصاح والبيان والتبليغ، وتستنكر موقف الذين يكتمون الحقائق .

ومن بين هذه الآيات قوله «عز وجل»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعُنُونَ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ^(٨) . فهذه الآية واضحة الدلالة على:

١- ذم وتحريم الكتمان لما بيّنه الكتاب من حقائق ومعارف .

٢- الكتمان يستدعي العقاب والغضب الإلهي والطرده من الرحمة الإلهية .

٣- زوال اللعنة بحاجة إلى معالجة تتكون من: توبة وإصلاح وبيان للحقائق .

ومن المعلوم أن الله «عز وجل» لم يُنزل العقائد والأحكام التشريعية الفردية فقط، بل شمل في ما أنزله قضايا من قبيل مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقارعة الظلم والفساد ولزوم إقامة العدل وغير ذلك من المسائل ذات الأبعاد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

قال العلامة السيد محمد حسين فضل الله «رحمه الله» في تفسير الآيتين السابقتين: (ربما يكون المقصود بهؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله، أهل الكتاب أو اليهود منهم خاصة... ولكن الآية لا تتجمد عند النماذج التي نزلت فيهم أو انطلقت منهم، لأنَّ أسباب النزول تعتبر منطلقاً للفكرة من خلال النموذج الحيّ في عصر نزول الآية، لتتحرك الفكرة من خلال الواقع الذي يقتحم على الناس حياتهم في نطاق المشكلة الحية البارزة.

وفي ضوء ذلك، نقرّر أنَّ الآية واردة لتقرير المبدأ العام الشامل لكلّ الناس الذين يملكون المعرفة بحقائق الأشياء، وأفاق البيّنات، وسُبُل الهدى، في ما بيّنه الله للناس في كتابه، سواء كان من الكتب الأولى التي أنزلت على إبراهيم

وموسى وعيسى وغيرهم، أو كان المراد به الكتاب الأخير الذي هو القرآن، فإنَّ الإنسان الذي يملك المعرفة يحمل مسؤوليتها أمام الله بأن يبينها للناس إذا طلبوها منه، أو إذا غفلوا عنها فلم يلتفتوا إليها، فلا يجوز له أن يخفيها عنهم أو يكتمها، لأنَّ في ذلك إخفاءً للحقيقة، وكتماناً للرسالة، ما يوجب وقوع النَّاس في الضلال أو انحرافهم عن خطِّ الحقِّ وضياعهم في متاهات الجهل والحيرة. وهذا مخالف للسنة الإلهية التي درجت على إرسال الأنبياء، وإنزال الكتب، ليفتحوا عيون النَّاس وقلوبهم على الحقيقة، وليخططوا لهم درب الحياة على أساس المنهج الواضح المستقيم) ^(٩).

ومن الآيات التي تدم الكتمان قوله «عز وجل»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ ^(١٠).

وفي هذه الآية خطاب شديد اللهجة موجهٌ إلى من يكتم ما أنزل الله من حقائق ومعارف ومفاهيم من أجل تحقيق

مكاسب شخصية، من قبيل المال والجاه والسلطة، وهذا معنى ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي أنهم يفعلون ذلك طلباً للمنافع الشخصية، كما يفعل وعَاظُ السلاطين الذين يَرونَ الظلم والفساد الواقع من الحكام والمسؤولين، ويسكتون لا لشيء سوى لرغبتهم في المحافظة على المقام المرموق الذي عُيِّنوا فيه، أو استمرار الأموال الذي يتقاضونها من الحكام، أو غير ذلك من مُتَع الدنيا.

وهذا من جملة ما دفع الإمام زين العابدين «عليه السلام» لكتابة رسالة إلى تلميذه محمد بن مسلم بن شهاب الزُّهري - حباً له وشفقةً عليه - حين قَبِلَ منصباً رسمياً من قبل الأمويين وفيها: (كفانا الله وإياك من الفتن، ورحمك من النار، فقد أصبحت بحالٍ ينبغي لِمَنْ عَرَفَكَ بها أَنْ يَرْحَمَكَ، فقد أثقلتكَ نعمُ الله بما أصَحَّ من بدنك، وأطال من عمرك، وقامت عليك حجج الله بما حمَّلَكَ من كتابه، وفقَّهَكَ فيه من دينه، وعَرَّفَكَ من سُنَّةِ نبيِّه محمد «صلى الله عليه وآله»، فانظر أيَّ رجل تكون غداً، إذا وقفت بين يدي الله فسألك عن نعمه عليك كيف رعيتهَا؟ وعن حُججه عليك كيف قضيتها؟ ولا

تَحْسِبَنَّ اللَّهَ قَابِلًا مِنْكَ بِالتَّعْذِيرِ، وَلَا رَاضِيًا مِنْكَ بِالتَّقْصِيرِ،
هيهات! هيهات! ليس كذلك، أخذ على العلماء في كتابه
إذ قال: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾.

واعلم أن أدنى ما كتمت، وأخف ما احتملت أن أنست
وحشة الظالم، وسهّلت له طريق الغي بدنوّه منه حين
دنوت، وإجابتك له حين دُعيت. فما أخوفني أن تكون تبوء
بإثمك غداً مع الخونة، وأن تُسأل عما أخذت بإعانتك على
ظلم الظّلمة، إن أخذت ما ليس لك ممّن أعطاك، ودنوت
ممّن لم يرُدّ على أحد حقاً، ولم ترُدّ باطلاً حين أدناك،
وأحببت من حادّ الله.

أو ليس بدعائه إياك حين دعاك جعلوك قطباً، أداروا بك
رَحَى مظالمهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم، وسلماً
إلى ضلالتهم، داعياً إلى غيهم، سالكاً سبيلهم، يُدخلون بك

الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم؟
فلَمْ يَلِغْ أخصّ وزرائهم، ولا أقوى أعوانهم، إلا دون ما بلغت
من إصلاح فسادهم، واختلاف الخاصة والعامة إليهم.

فما أقلّ ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك! وما أيسر ما

عمروا لك، فكيف ما خربوا عليك! فانظر لنفسك فإنه لا ينظر لها غيرك، وحاسبها حساب رجلٍ مسؤول...^(١١).

وهكذا قال الله «عز وجل» في ضرورة الإفصاح وكشف الحقائق: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(١٢).

بالطبع ليست هذه هي الآيات الوحيدة التي تحدثت عن ضرورة الإفصاح والنهي عن كتمان الحقائق، ولكن أكتفي بهذا المقدار طلباً للاختصار.

ولذا صرح عدد من الفقهاء المتقدمين والمتأخرين في كتبهم وبحوثهم بأن الأصل هو البيان والشفافية، وليس الكتمان والغموض والتستر.

قال العلامة الحلبي «رحمه الله» في كتابه (نهج الحق وكشف الصدق): (وجب على كل مجتهد وعارف إظهار ما أوجب الله إظهاره من الدين وكشف الحق، وإرشاد الضالين، لئلا يدخل تحت الملعونين على لسان رب العالمين وجميع الخلائق أجمعين بمقتضى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية)^(١٣).

نعم نجد في القرآن ما يدلُّ على ضرورة الكتمان، ولكنه في مورد الحفاظ على الأسرار الأمنية، وذلك من قبيل قول الله «عز وجل»: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ^(١٤).

✽ معالجة الأحاديث:

وبالتالي إذا أردنا معالجة الأحاديث السابقة وأمثالها الأمرة بالكتمان، والذامّة للإفصاح، فلا بد من تقسيمها إلى أصناف:

١- الأحاديث الضعيفة التي لا يُؤخذ بها كدليل ومستند. وهي الغالبة في الباب. وبمراجعة رواتها سنجد عديداً من الرواة المتهمين بالغلو، وهؤلاء يناسبهم هذا الطرح، كي يقولوا للناس أن لدينا من الأسرار التي أخذناها عن أئمة أهل البيت «عليهم السلام»، ونحن أذعنّاها في الوقت المناسب، فلا يحق لكم تكذيبنا.. كما أن من الرواة من هم من الباطنيين، وهؤلاء أيضاً يناسب منهجهم هذا الصنف من الكلام المنسوب إلى الأئمة «عليهم السلام».

٢- الأحاديث الصادرة ضمن ظروف سياسية قمعية قاهرة واستثنائية، كان يتم فيها التقاط كل مَنْ يُشتَبه بأمره، فيُعَذَّب ويُغَيَّب في السجون، ولو كان الاشتباه به صادراً عن تهمة باطلة. ولذا جاءت بعض النصوص لحماية الإمام أو المؤمنين من القمع والسجن والمطاردة. وهو ما يدخل بالتالي ضمن إطار (التقية).

ومن نماذج ذلك ما رواه عبد الله بن زرارة بن أعين قال :
 (قال لي أبو عبد الله «عليه السلام» اقرأ مني على والدك السلام،
 وقل له: إني إنما أعيبك دفاعاً مني عنك، فإنَّ الناس
 والعدو يسارعون إلى كل مَنْ قَرَّبناه وحمدنا مكانه لإدخال
 الأذى في مَنْ نُحِبُّه ونُقَرِّبُهُ، يرمونه لمحبتنا له، وقربه وذنوه
 منّا، ويروْنَ إدخالَ الأذى عليه وقتله، ويحمدون كلَّ مَنْ عِناهُ
 نحن وأنَّ نحمد أمره. فإنّما أعيبك لأنّك رجلٌ اشتهرت
 بنا ولميلك إلينا، وأنت في ذلك مذمومٌ عندَ الناسِ غيرُ
 محمودٍ الأثر لمودّتك لنا، ولميلك إلينا، فأحببتُ أنْ أعيبك
 ليحمدوا أمرَكَ في الدِّينِ بعيبك ونقصك، ويكون بذلك
 منّا دفعُ شرِّهم عنك. يقول الله «جَلَّ وعَزَّ» ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ

لَمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ
مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿١٥﴾ .

٣- الأحاديث التي تجعل نشر الحقائق مُقَيِّداً بوجود مَنْ
يتقبلها ويعي مضمونها، سواء أكان سيتبنّاها أم لا.. أما إذا
كان نشرها يؤدي إلى ترتّب نتائج سلبية على المتحدث أو
المتلقي، فالكتمان أولى.

قال العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي «رحمه الله»: (والسبب
في أمرهم «عليهم السلام» شيعتهم بكتمان علومهم هو أنهم
كانوا يخشون أن تُذاع أخبارهم، فتصل إلى خلفاء الجور
فيتضررون «عليهم السلام» منهم، أو تقع عند ضعف العقول الذين
لا يفهمونها على وجهها، فيصير ذلك سبباً لضلالتهم ومزيد
تحيّرهم) ^(١٦) .

٤- الأحاديث التي يُفهم منها حرص الأئمة «عليهم السلام»
على عدم بث ما من شأنه بث الفرقة بين المسلمين وشقّ
الصف الواحد، تماماً كما فعل النبي هارون «عليه السلام» مع بني
إسرائيل: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ لماذا
كتمت الحقيقة وسكت؟ ﴿أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ قَالَ

يَا ابْنَ أُمٍّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ
فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١٧﴾ .

فقد كان كتمان هارون للحقيقة استجابة لطلب من
النبي موسى «عليه السلام» من قبل حيث أوصاه: ﴿وَقَالَ مُوسَى
لَأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ
الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٨) .

فعدم إحداث الفرقة وإبقاء المجتمع واحداً غير منقسم
بانتظار التدبير الحكيم لمعالجة الخلل هو جزء من الإصلاح.
والتاريخ ملئ بصور الصراعات التي دبَّت في المجتمع
المسلم آنذاك بسبب خلاف في مسألة عقدية أو ما شابه،
وترتبت عليها مآسي كثيرة.. وكفي الاطلاع على محنة
(خلق القرآن) في العهد العباسي لفهم واقع الحال .

٥- الأحاديث التي يُستشف منها حرص الأئمة «عليهم السلام»
على عدم فرز شيعتهم خارج الدائرة الإسلامية، عندما
يُظهرون بعض المعارف الخاصة التي يستوحش منها
الآخرون لعدم معرفتهم المسبقة بها، ولأنها تخالف ما تلقوه
من معارف إسلامية من خلال علمائهم، وتدفعهم إلى اتهام

المسلمين الشيعة بالخروج من الملة.. من قبيل مسائل الخلافة والإمامة، وبعض الأحكام الشرعية المختلف فيها، وبعض الإخبارات الخاصة بالأحداث والتي اختصهم بعلمها النبي «صلى الله عليه وآله» .

فالأصل إذاً هو كشف المعارف والحقائق، والوقوف في وجه الباطل، إلا في حالة وجود عنوان ثانوي حقيقي ومدرّوس يُثبت أنه لا بد من الكتمان، وبالتالي يُقدّم على العنوان الأوّلي، بشرط أن لا يتحول إلى حالة مزمنة دائمة، كما نجدها عند المذاهب الباطنية، بل يبقى الكتمان حالة مرحلية تفرضها الضرورات والمصالح الوقتية.

✽ الاعتزاز بالثورة الحسينية:

لقد كانت نهضة الإمام الحسين «عليه السلام» مفخرةً يعتز بها أئمة أهل البيت «عليهم السلام» والموالون لهم وكل الأحرار الذين انطلقوا من خلالها لمقارعة الفساد والظلم والباطل بعد أن قدّم لهم الإمام الحسين «عليه السلام» الدرس العملي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح وإباء الضيم والتضحية من أجل المبدأ.

المصادر والتعليقات الختامية:

- ١- الكليني: الأصول من الكافي، ج ٢، ص ٢٢٢.
- ٢- الكليني: الأصول من الكافي، ج ٢، ص ٢٢٣.
- ٣- الكليني: الأصول من الكافي، ج ٢، ص ٢٢٦.
- ٤- الكليني: الفروع من الكافي، ج ٨، ص ٣٧٤.
- ٥- المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١١٣.
- ٦- القرشي: حياة الإمام الحسين، ج ٣، ص ٣٠٤.
- ٧- ن.م. ص ٣٤٤.
- ٨- سورة البقرة: ١٥٩-١٦٠.
- ٩- فضل الله: من وحي القرآن، تفسير الآيتين: ١٥٩-١٦٠ من سورة البقرة.
- ١٠- سورة البقرة: ١٧٤-١٧٥.
- ١١- الحراني: تحف العقول، ص ٢٧٥-٢٧٧.
- ١٢- سورة الاحزاب: ٣٩.
- ١٣- الحلبي: نهج الحق وكشف الصدق: ص ٣٧.
- ١٤- سورة النساء: ٨٣.
- ١٥- الكشي: اختيار معرفة الرجال ١: ٣٤٩. والآية من سورة الكهف: ٧٩.
- ١٦- المجلسي: مرآة العقول، ج ٩، ص ٢٨٦.
- ١٧- سورة طه: ٩٢-٩٤.
- ١٨- سورة الأعراف: ١٤٢.

الخدلان - القسم الأول

واجه الإمام الحسين «عليه السلام» معارضةً لخروجه من الحجاز ومحاولات لثنيه عن عزمه من قبل بعض الشخصيات من العيار الثقيل في الوسط الإسلامي آنذاك.

ومن الخطأ التاريخي أن نضع كل المعارضين لخروج الإمام في فئة واحدة من حيث أسباب المعارضة وخلفيات المواقف والدوافع الشخصية... إذ أن دراسة كل شخصية

على حدة، وظروفها الخاصة، بالإضافة إلى ما صدر عنها بهذا الخصوص يُلزمنا أن نقسمهم إلى فئات.

✽ النموذج الأول، محمد بن الحنفية:

وهو محمد ابن الإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام»، عُرف بابن الحنفية نسبةً إلى أمه، وكانت من قبيلة بني حنيفة. له موقف في المدينة المنورة قبيل خروج الإمام منها، ففي الخبر أنه لما استدعي الإمام الحسين «عليه السلام» عند الوالي وطول بمبايعة يزيد، لم يستجب الإمام لذلك، وخرج ناوياً ترك المدينة: (فلما جاء إليه محمد ابن الحنفية «رضي الله عنه»: «يا أخي فدتك نفسي! أنت أحب الناس إليّ وأعزهم عليّ، ولست والله أدخر النصيحة لأحدٍ من الخلق، وليس أحدٌ أحقّ لها منك، فإنك كنفي وروحي وكبير أهل بيتي ومن عليه اعتمادي، وطاعته في عنقي، لأنّ الله تبارك وتعالى قد شرّفك وجعلك من سادات أهل الجنة. وإنّي أريد أن أشير عليك برأيي فاقبله مني».

فقال له الحسين: «قل ما بدا لك». فقال: «أشير عليك أن تنجونفسك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت،

وَأَنْ تَبْعَثَ رِسْلَكَ إِلَى النَّاسِ وَتَدْعُوهُمْ إِلَى بَيْعَتِكَ، فَإِنِّي إِنْ بَايَعَكَ النَّاسُ وَتَابَعُوكَ حَمَدْتُ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ، وَقَمْتُ فِيهِمْ بِمَا يَقُومُ فِيهِمُ النَّبِيُّ «صلى الله عليه وآله» والخلفاء الراشدون المهديون من بعده حتى يتوفاك الله وهو عنك راضٍ، والمؤمنون كذلك، كما رضوا عن أبيك وأخيك. وَإِنْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى غَيْرِكَ حَمَدْتُ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ. وَإِنِّي خَائِفٌ عَلَيْكَ أَنْ تَدْخَلَ مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ، أَوْ تَأْتِيَ جَمَاعَةً مِنَ النَّاسِ فَيَقْتَتِلُونَ، فَتَكُونَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ، وَطَائِفَةٌ عَلَيْكَ فَتَقْتُلَ مِنْهُمْ».

فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ: «يَا أَخِي، إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ؟». قَالَ: «اخْرُجْ إِلَى مَكَّةَ، فَإِنْ اطمَأْنَنْتَ بِكَ الدَّارَ فَذَاكَ الَّذِي تَحِبُّ وَأُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى، خَرَجْتَ إِلَى بِلَادِ الْيَمَنِ، فَإِنَّهُمْ أَنْصَارُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَأَبِيكَ، وَهُمْ أَرَأْفُ النَّاسِ وَأَرْقُهُمْ قُلُوبًا، وَأَوْسَعُ النَّاسِ بِلَادًا، وَأَرْجَحُهُمْ عُقُولًا. فَإِنْ اطمَأْنَنْتَ بِكَ أَرْضُ الْيَمَنِ وَإِلَّا لَحِقْتَ بِالرَّمَالِ وَشُعُوبِ الْجِبَالِ، وَصَرْتَ مِنْ بِلَدٍ إِلَى بِلَدٍ، لَتَنْظُرَ مَا يُوَوِّلُ إِلَيْهِ أَمْرُ النَّاسِ، وَيَحْكُمُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ»).

إِلَّا أَنَّ الْإِمَامَ «عليه السلام» أَصَرَ عَلَى مَوْقِفِهِ مِنْ عَدَمِ بَيْعَةِ يَزِيدَ

والخروج إلى مكة مع أهله وأنصاره... (فقال له الحسين: «يا أخي، والله لولم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت - والله - يزيد بن معاوية أبداً، وقد قال «صلى الله عليه وآله»: اللهم لا تبارك في يزيد».

قال: فقطع عليه محمد ابن الحنفية الكلام وبكى، فبكى معه الحسين ساعة ثم قال: «جزاك الله يا أخي عني خيراً». ولقد نصحت وأشرت بالصواب، وأنا أرجو أن يكون إن شاء الله رأيك موفقاً مسدداً، وإنني قد عزمت على الخروج إلى مكة، وقد تهيأت لذلك أنا وإخوتي وبنو إخوتي وشيعتي وأمرهم أمري ورأيهم رأيي. وأما أنت يا أخي فلا عليك أن تُقيم بالمدينة فتكون لي عيناً عليهم، ولا تُخف علي شيئاً من أمورهم». قال: ثم دعا الحسين بدواة وبياض وكتب فيه.....).

وذكر الراوي وصية الإمام لأخيه محمد^(١).

❁ تقييم الموقف:

١- لا نشك أن محمد ابن الحنفية كان صادقاً في دوافع موقفه وكلامه، كأخ ومناصح.

٢- لا نستطيع أن نحكم على موقفه بشكل حاسم مع جهلنا بالظروف الموضوعية المحيطة به، وهل كان يملك عذراً شخصياً يمنعه من الخروج مع الإمام، من قبيل المرض مثلاً، بالإضافة إلى أن طبيعة حركة الإمام لم تكن قد اتضحت بعد من حيث التفاصيل «بلحاظ عدم وصول رسائل أهل الكوفة التي تطالب بالثورة»، لا من حيث المبدأ كما سيتبين من خلال مضمون الوصية، إلا أن خروج أهل بيت الحسين وأنصاره وبقاء ابن الحنفية في المدينة دون إبداء أية رغبة في الخروج ولا تقديم عذر للتخلف عن الركب، يُبقي علامة الاستفهام قائمة لا محالة.

٣- لا بد أن نؤكد على أن كلمات ابن الحنفية لم تحمل في طياتها أية مطالبة بالخضوع لحكم يزيد، وهذا قد يشفع له بنحو ما عند تحليل موقفه.

✽ محتوى وصية الإمام:

هذا، وقد روى بعض المؤرخين مضمون وصية الإمام الحسين «عليه السلام» لأخيه محمد، واعتبرها البعض بمثابة البيان رقم واحد في ثورته المباركة.

ومما جاء فيها: (.... وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب النجاح والصلاح في أمة جدي محمد «صلى الله عليه وآله» أريد أن أمر بالمعروف وأنهي عن المنكر وأسير بسيرة جدي محمد «صلى الله عليه وآله» وسيرة أبي علي بن أبي طالب...)^(٢).

وعلى الرغم من الدلالة الواضحة في هذا المقطع على أن الإمام ينوي التحرك ضد الأمويين، إلا أن ابن الحنفية لم ينضم للركب الذي أخبر الإمام عنهم في طيات حديثه معه حيث قال: (وإنني قد عزمْتُ على الخروج إلى مكة، وقد تهيأتُ لذلك أنا وإخوتي وبنو إخوتي وشيعتي وأمرهم أمري ورأيهم رأيي)، فلمَ لم يكن رأي محمد كراي الإمام أسوة ببقية أهله وشيعته؟

وتبقى المسألة تدور في إطار الاحتمالات التي ذكرتها في النقطة الثانية.. والله أعلم بحقيقة الحال.

✽ النموذج الثاني، عبدالله بن عباس:

ويطالعنا موقف ابن عباس، في مكة المكرمة، في الأيام الأخيرة من وجود الإمام «عليه السلام» فيها، وهو شبيه بموقف

ابن الحنفية، فقد روى الطبري: (أن حسيناً لما أجمع المسير إلى الكوفة أتاه عبد الله بن عباس فقال: «يا ابن عم، إنك قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فبين لي ما أنت صانع؟»).

قال: «إنني قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله تعالى».

فقال له ابن عباس: «فإني أعيذك بالله من ذلك، أخبرني رحمك الله، أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم، ونفوا عدوهم؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسير إليهم، وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم، قاهر لهم، وعماله تجبي بلادهم، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك، وأن يستنفروا إليك، فيكونوا أشد الناس عليك». فقال له حسين: «وإني أستخير الله، وأنظر ما يكون»^(٣).

❁ موقف آخر:

ثم ينقل الطبري ما جرى بين الإمام وابن الزبير، وتأكيد الإمام الحسين «عليه السلام» عزمه على الخروج ثم قال: (فلما

كَانَ مِنَ الْعَشِيِّ أَوْ مِنَ الْغَدِ، أَتَى الْحُسَيْنَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ فَقَالَ: «يَا بَنَ عَمِّ، إِنِّي أَتَصَبَّرُ وَلَا أَصْبِرُ، إِنِّي أَتَخَوَّفُ عَلَيْكَ فِي هَذَا الْوَجْهَ الْهَلَاكَ وَالْإِسْتِثْصَالَ؛ إِنْ أَهْلَ الْعِرَاقِ قَوْمٌ غَدَرُوا، فَلَا تَقْرَبْنَهُمْ. أَقِمْ بِهَذَا الْبَلَدِ، فَإِنَّكَ سَيِّدُ أَهْلِ الْحِجَازِ، فَإِنْ كَانَ أَهْلُ الْعِرَاقِ يَرِيدُونَكَ كَمَا زَعَمُوا فَارْتَبِ إِلَيْهِمْ، فَلْيَنْفُوا عَدُوَّهُمْ، ثُمَّ أَقْدِمْ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ أُبَيَّتَ إِلَّا أَنْ تَخْرُجَ، فَسِرْ إِلَى الْيَمَنِ، فَإِنَّ بِهَا حُصُونًا وَشِعَابًا، وَهِيَ أَرْضٌ عَرِيضَةٌ طَوِيلَةٌ، وَلَأُبَيِّكَ بِهَا شِيعَةٌ، وَأَنْتَ عَنِ النَّاسِ فِي عُزْلَةٍ، فَتَكْتَبُ إِلَى النَّاسِ وَتُرْسِلُ، وَتُبَيِّتُ دُعَاتِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَأْتِيَكَ عِنْدَ ذَلِكَ الَّذِي تُحِبُّ فِي عَافِيَةٍ».

فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ: «يَا بَنَ عَمِّ، إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَعْلَمُ أَنَّكَ نَاصِحٌ مُشْفِقٌ، وَلَكِنِّي قَدْ أَزْمَعْتُ وَأَجْمَعْتُ عَلَى الْمَسِيرِ».

فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: «إِنْ كُنْتَ سَائِرًا، فَلَا تَسِرْ بِنِسَائِكَ وَصِبْيَتِكَ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَخَائِفٌ أَنْ تُقْتَلَ كَمَا قُتِلَ عُثْمَانُ، وَنَسَاؤُهُ وَوُلْدُهُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ». ثُمَّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «لَقَدْ أَقْرَرْتَ عَيْنَ ابْنِ الزُّبَيْرِ بِتَخْلِيَتِكَ إِلَيْهِ وَالْحِجَازَ وَالْخُرُوجَ مِنْهَا، وَهُوَ الْيَوْمَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ أَحَدٌ مَعَكَ»^(٤).

✽ تقييم الموقف :

١- مجدداً لا نشك أن ابن عباس كابن الحنفية، كان صادقاً في دوافع موقفه وكلامه، كمناصح، وقد بين الإمام ذلك بنفسه، ولكن يبقى السؤال : ما الذي جعل حبر الأمة يتكلم بمثل هذه الكلمات، ويقف هذا الموقف بدلاً من نصره الإمام بنفسه؟

يُحتمل بالفعل أن يكون ابن عباس معذوراً في صحته وجسده حينذاك، فمن المعروف أنه أصيب بالعمى في أو آخر حياته، ووفاته كانت سنة ٦٨ للهجرة، أي بعد استشهاد الإمام بسبع سنوات.

ولكن لو كان مقتنعاً ومؤيداً ومناصرًا لحركة الإمام، فلم لم يسند الإمام بأولاده وأهله ومن يأخذون عنه من طلاب العلم وغيرهم؟ لم لم ينادِ بتحريك الناس عموماً ليخرجوا مع الإمام «عليه السلام» واكتفى بالنصح؟ لماذا اقترح الانتظار حتى استقامة الأمور بحسب تعبيره؟

٢- يتكرر في كلام المناصحين للإمام بعدم الخروج دفعه نحو الإبقاء على نفسه، وهم غافلون عن أن الإمام ما كان

حريصاً على هذه الحياة، وما كان هذا همّه، بل كان همّه وما يُقلقه كيفية العمل على إبقاء الإسلام حياً، بعد كل الجهود الأموية التي لا تكل ولا تمل في تشويه الإسلام وحرفه عن صراطه المستقيم، والسعي للقضاء عليه، أو إبقائه مجرد قشور ومظاهر، مع سلب حقيقته من النفوس.

٣- حاول ابن عباس أن يخوّف - أو ينبّه - الإمام إلى منافسة عبد الله بن الزبير له، لعل وعسى أن يُثني الإمام عن عزمه على الخروج إلى العراق، إلا أن الإمام أوضح له أنه غير مكترث بذلك، حين لم يستجب لهذا التحذير. فالإمام لم تكن تهمة منافسة ابن الزبير، ولا أيّ أحد آخر.. فالذين يعيشون مثل هذا الهم إنما هم الذين يلهثون وراء مكاسبهم الشخصية ومطامعهم السلطوية، وأما الإمام فكان يعيش مسؤولية الرسالة والأمانة التي يحملها كأحد العترة الطاهرة الذين أوكل إليهم النبي «صلى الله عليه وآله» الحفاظ على الإسلام والتضحية في هذا الطريق.

✽ النموذج الثالث، عبد الله بن عمر:

لم يُعرف عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ولاء لآل بيت

رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فهو لم يكن مع علي «عليه السلام» إبان خلافته، كما لم يقف ضده.. وقد عارض تعيين يزيد خليفة دون أن يكون في منطلقه العمل على إرجاع حق الحكم للعترة الطاهرة من آل البيت «عليهم السلام».

قال ابن الأثير: (عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد، فأرسل إلى عبد الله بن عمر مائة ألف درهم، فقبلها، فلما ذكر البيعة ليزيد قال ابن عمر: «هذا أراد؟! إنَّ ديني عندي إذن لرخيص». وامتنع).

ثم ذكر ابن الأثير كلام عبدالرحمن بن أبي بكر في معارضته للأمر ثم أضاف: (وقام الحسين بن علي فأنكر ذلك، وفعل مثله ابن عمر وابن الزبير) ^(٥).

✽ شخصية ابن عمر:

هذا النص وإن دلَّ علي موقفه المعارض لخلافة يزيد، إلا أن قراءة متبعة لسيرة ابن عمر تكشف أن شخصيته كانت مختلفة - بشكل واضح - عن شخصية الإمام الحسين وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمن بن أبي بكر.

وهذا ما أشار إليه مروان بن الحكم عندما وصلت رسالة

يزيد إلى والي المدينة تطالبه بأخذ البيعة بعد موت معاوية، ففي كتاب «الفتوح» أن مروان قال للوالي: (ابعث إليهم في هذه الساعة فتدعوهم إلى البيعة والدخول في طاعة يزيد، فإن فعلوا قبلت ذلك منهم، وأن أبوا قديمهم واضرب أعناقهم قبل أن يدروا بموت بمعاوية، فإنهم إن علموا ذلك وثب كل رجل منهم فأظهر الخلاف ودعا إلى نفسه، فعند ذلك أخاف أن يأتيك من قبلهم ما لا قبل لك به، وما لا يقوم له. إلا عبد الله بن عمر، فإني لا أراه يُنازع في هذا الأمر أحداً إلا أن تأتيه الخلافة فيأخذها عفواً! فذّر عنك ابن عمر وابعث إلى الحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير فادعهم إلى البيعة...) (٦).

وبين أيدينا نص آخر يحمل ذات الدلالة، وذلك بعد أن أعلم ابن الزبير تمرّده على الأمويين وحكم يزيد، فطورد من قبل والي المدينة: (ثم أرسل إلى كل من كان من شيعة عبد الله بن الزبير فأخذه وحبسه، وفيمن حبس يومئذ ابن عمّ لعمر بن الخطاب، يُقال له عبد الله بن مطيع بن الأسود العدوي، وأمه يقال لها العجماء بنت عامر بن الفضل بن

عفيف بن كليب الخزاعية. قال : وحبس أيضاً مصعب بن عبد الرحمن بن عوف. قال : فمشى رجال من بني عدي إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب فقالوا : «يا أبا عبد الرحمن، إنَّ صاحبنا عبد الله بن مطيع قد حُبس مظلوماً لا ذنب له، والله لتُخرجنه أو لتموتنَّ من دونه». فقال لهم ابن عمر : «لا تعجلوا بالفتنة، ولا تُسارعوا إليها، فكم من رجلٍ قد أفسدت الفتنة عليه دينه ودنياه».

قال : ثم أرسل ابن عمر إلى مروان بن الحكم فدعاه إليه، وقال : «يا معشر بني أمية، استعينوا بالله وبالحق على إقامة دينكم ودنياكم، ولا تظلموا فإنَّ الظلم مرْتعه وخيمٌ، ولا تأخذوا بالظنة والتهمة، فإنَّكم إن استقمتم أعانكم الله، وإن ظلمتم وكلَّكم الله إلى أنفسكم، فكفّوا عن صاحبنا هذا، عبد الله بن مطيع، وخلّوا سبيله، فإنّا لا نعلم أن لكم عليه سبيل ولا حقّ تحبسونه به، فإن زعمتم أنكم ما حبستموه إلا لحقّ فافعلوا ذلك، وإن كنتم إنما حبستموه على الظنّ فإنّا لا ندع صاحبنا يُحبس مظلوماً».

فقال مروان : «إنما نحن حبسناه بأمر أمير المؤمنين يزيد،

وعليكم أن تكتبوا في ذلك إلى أمير المؤمنين، ونكتب نحن أيضاً، فإنه لا يكون إلا ما تحبون».

قال: فوثب أبوجهم بن حذيفة العدوي فقال: «نكتب وتكتبون، وابن العجماء محبوس؟ لا والله لا يكون ذلك أبداً».

ثم وثب بنو عدي فجعلوا يحضرون حتى صاروا إلى باب السجن، فاقتحموا على عبد الله بن مطيع فأخرجوه وأخرجوا كل من كان في السجن، ولم يتعرض إليهم أحد^(٧).

هذه هي طبيعة شخصية ابن عمر، فهو لم يزد على أن بعث إلى مروان محذراً من الظلم ومطالباً بإطلاق سراحه، بينما هجم جماعة من العدويين وأطلقوا سراح الرجل بالقوة، دون أن يلقوا معارضة، لأن بني أمية لم يعرفوا إلا هذا المنطق.

❁ النص الأول:

هناك اختلاف في كتب التاريخ في تفاصيل ما جرى من كلام بين الإمام الحسين وابن عمر وهو يحاول ثنيه عن الخروج إلى العراق.

من بين هذه النصوص ما رواه ابن أعثم، وفيه من الكلام والتفاصيل ما لا تركز إليه النفس، ولعل الخبر في ذاته

صحيح، وإن أضيفت عليه إضافات من الرواة. وسأكتفي بنقل بعض ما جاء في الخبر اختصاراً وتجاوزاً عما لا يطمأن إليه.

ومما جاء في الخبر: (.. وبمكة يومئذ عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر بن الخطاب «رضي الله عنهما»، فأقبلا جميعاً حتى دخلا على الحسين وقد عزمنا على أن ينصرفا إلى المدينة، فقال له ابن عمر: «أبا عبدالله، رحمك الله، اتق الله الذي إليه معادك! فقد عرفت من عداوة أهل هذا البيت لكم وظلمهم إياكم، وقد ولي الناس هذا الرجل، يزيد بن معاوية، ولست آمن أن يميل الناس إليه لمكان هذه الصفراء والبيضاء) الدنانير الذهبية والدراهم الفضية (فيقتلونك ويهلك فيك بشر كثير، فإنني قد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول: حسينٌ مقتول، ولئن قتلوه وخذلوه ولن) لعل الصحيح «لم» (ينصروه، ليخذلهم الله إلى يوم القيامة. وأنا أشير عليك أن تدخل في صلح ما دخل فيه الناس، واصبر كما صبرت لمعاوية من قبل، فلعل الله أن يحكم بينك وبين القوم الظالمين».

فقال له الحسين: «أبا عبد الرحمن، أنا أباع يزيد وأدخل

في صلحه، وقد قال النبي «صلى الله عليه وآله» فيه وفي أبيه ما قال؟». ثم نقل ابن أعثم كلام ابن عباس وردَّ الإمام عليه، ثم عاد لكلام ابن عمر حيث قال : «أبا عبدالله، مهلاً عما قد عزمت عليه، وارجع من هنا إلى المدينة، وادخل في صلح القوم، ولا تَغِبْ عن وطنك وحرم جدِّك رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولا تجعل لهؤلاء الذين لا خلاق لهم على نفسك حجةً وسبيلاً. وإن أحببت أن لا تبائع فأنت متروكٌ حتى ترى برأيك، فإنَّ يزيد بن معاوية - لعنه الله - عسى أن لا يعيش إلا قليلاً فيكفيك الله أمره». فقال الحسين : «أف لهذا الكلام أبداً ما دامت السماوات والأرض...»^(٨).

❁ النص الثاني :

أما ابن عساكر فروى أكثر من رواية، وتخالف ما سبق في المكان والحوار، وإن اتَّفقت في النهاية مع رواية ابن أعثم من حيث النتيجة، وعليها أيضاً من الملاحظات ما يجعل الرواية موضع نقد أيضاً من عدَّة جهات.

قال : (كان ابن عمر قدَّم المدينة فأخبر أنَّ الحسين بن علي قد توجَّه إلى العراق، فلحقه على مسيرة ليلتين، أو

ثلاث، من المدينة. فقال : «أين تريد؟». قال : «العراق». ومعه طوامير وكتب، فقال : «لا تأتهم». فقال : «هذه كتبهم وبيعتهم». فقال : «إِنَّ اللَّهَ «عز وجل» خَيْرُ نَبِيٍّ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَاخْتَارَ الْآخِرَةَ، وَلَمْ يُرِدِ الدُّنْيَا، وَإِنَّكُمْ بَضْعَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ «صلى الله عليه وآله»، وَاللَّهُ لَا يُلِيهَا أَحَدٌ مِنْكُمْ أَبَدًا، وَمَا صَرَفَهَا اللَّهُ «عز وجل» عَنْكُمْ إِلَّا لِلَّذِي هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، فَارْجِعُوا». فَأَبَى وَقَالَ : «هذه كتبهم وبيعتهم». قال : فاعتنقه ابن عمر وقال : «أَسْتَدْعُكَ اللَّهُ مِنْ قَتِيلٍ»^(٩) .

من الملاحظات التي تُسَجَّل على هذا النص، أنه لا يصح أن يكون الحدث عند خروج الإمام من المدينة، فإن الكتب وصلت إليه وهو بمكة.. فلعل الخبر برمته مختلق، وهو الأقرب.. كما يُحتمل أن الرواة أو النساخ وقعوا في خطأ بين المكانين.. أو أن يكون ابن عمر قد قطع مسافةً طويلةً جداً من المدينة باتجاه (نجد) حيث طريق السفر من مكة إلى العراق، واستطاع اللحاق بالحسين «عليه السلام»، وهذا بعيد الاحتمال.

الملاحظة الثانية أن في كلام ابن عمر تعريضاً بالإمام الحسين، وكأنّه يتّهمه بأنّه طالبٌ مُلْك، وأنّه مُقبلٌ على الدنيا

رغبةً فيها، وليست حركته نوعاً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما لم ينفه الإمام بحسب الخبر.. وهذا لا يمكن قبوله.

❁ تقييم الموقف:

١- مجدداً، لا تشكيك في النية الصالحة لابن عمر فيما عرضه على الإمام بعدم الخروج، سواء أكان ذلك بناءً على ما جاء في النص الأول أو النص الثاني. فابن عمر لم يكن يطمع في الحكم، ولا يعمل على ذلك، كما سبق وأن أشار مروان بذلك، وهذا على خلاف النموذج الثاني الذي سنقدّمه من خلال مواقف وكلمات عدة شخصيات في القسم الثاني بإذن الله.

٢- في النصوص دلالة على إعطاء قيمة عليا للحياة والعيش الآمن الرغيد، على الرغم من كل المفاسد المنتشرة، والانحراف الكبير الذي يستوجب النهوض ضده، وتحريك الأجواء الراكدة بهدف إخراج الناس من غفلتهم وركونهم إلى الباطل والفساد، وقبولهم بهما.

٣- يبدو أن حالة الخوف من البطش الأموي كانت مستحكمة

في النفوس، وهو ما دعى ابن عمر وغيره لتخويف الإمام من سلطان الأمويين، وعدم مخافتهم الله في عباده.

٤- في كلام ابن عمر ما يفهم منه أن الخروج والثورة على يزيد تمثل نوعاً من إيقاع الفتنة في المجتمع الإسلامي، وهو ما نهت عنه النصوص الكثيرة، في غفلة عن أن الفتنة تتمثل في السلوك الأموي ذاته، والذي يسعى لمحو حقيقة الإسلام، وإحلال المبادئ الجاهلية محلّها.

٥- إنَّ صحَّ الخبر الثاني بمجمله، فهو يعني أنَّ الإمام الحسين كان قد عقد العزم على الخروج للإطاحة بحكم الأمويين حيث أقيمت عليه الحُجَّة من خلال الرسائل ودعوات البيعة له، تماماً كما أقيمت على أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» الذي قال بعد أن تكالب عليه الناس لبيعته على أثر مقتل الخليفة عثمان وهو يعلم أن الأمور لن تستقيم.. أو لن تستقيم له بيسر على أقل تقدير: (أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحُجَّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كِظ ظالم، ولا سَغَبِ مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها،

ولسقيتُ آخرَها بكأسِ أولَها، ولألفيتُم دنياكم هذه أزهَدَ
عندي من عَفْطَةِ عَنزٍ^(١٠) .

علماً بأن الإمام علياً تحمّل ذلك وهو على بصيرةٍ من أمره،
ويدرك أن الأوضاع ستكون حرجة جداً، ولذا قال : (دعوني
والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان. لا تقومُ
له القلوب، ولا تثبت عليه العقول. وإنّ الآفاق قد أغامت،
والمحجّة قد تنكّرت. واعلموا أنّي إنّ أحبّتكم ركبّت بكم ما
أعلم، ولم أصغِ إلى قول القائل وعَتَبِ العاتِبِ)^(١١) .

❁ نهضة لا بد منها:

وهكذا هو حال الإمام الحسين «عليه السلام»، فهو وإن حذّر مراراً
من قبل أكثر من شخص من الاغترار بتلك الرسائل والوعود،
إلا أنه من موقع المسؤولية الرسالية لم يجد مناصاً من
مجاراة ظاهر الأمور، فلعل القوم يصدقون ويثبتون، فيتحقق
له النصر على الظالمين، ويُنقذ المظلومين ويخلصهم من
معاناتهم المستمرة.

وأما الذين حاولوا أن يُثْنَوْه عن الخروج إلى العراق، فلم
يملكوا وعي الحسين لمدى الخطر الذي بلغته الأمور، وهو

ما كان يستدعي منه الخروج، سواء أكانت الأمور ستستقيم له، أم أنها ستأخذ منحى الخذلان.

لقد كان الإمام الحسين «عليه السلام» مستعداً لتقديم التضحيات الكبيرة التي ما كان كثيرون على استعداد لتقديمها - ولعل الأعذار والظروف الشخصية الحقيقية منعت البعض من الالتحاق بالركب - وهذا ما جعل المتخلفين من غير ذوي الأعذار بعيدين عن نصره ودعم موقفه، واكتفوا بكلمات ناصحة مشفقة وهم غافلون عن أن دم الحسين سيغير معالم التاريخ!



المصادر والتعليقات الختامية:

- ١- ابن أعثم: الفتوح، ج ٥، ص ٢٠-٢١
- ٢- ن.م. ص ٢١.
- ٣- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٩٤.
- ٤- ن.م. ص ٢٩٥.
- ٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٣٥١.
- ٦- ابن أعثم: الفتوح، ج ٥، ص ١١.
- ٧- ابن أعثم: الفتوح، ج ٥، ص ١٥-١٦.
- ٨- ن.م. ص ٢٣-٢٥.
- ٩- ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ١٤، ص ٢٠٢.
- ١٠- الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٣.
- ١١- ن.م. الخطبة ٩٢.

الخذلان - القسم الثاني

بعد استعراض موقف محمد ابن الحنفية وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر، وكلماتهم الصادقة ونصائحهم الأخوية ضمن محاولاتهم ثني الإمام الحسين «عليه السلام» عن الخروج إلى العراق، نستعرض مواقف شخصيات أخرى سعت نفس المسعى، وإن كانت لنا ملاحظات سلبية على نواياها ودوافعها.

✽ النموذج الرابع، عمرو والأشدق:

والي مكة: الأشدق عمرو بن سعيد بن العاص بن أبي
أحيحة الأموي. قُتل جدُّه العاص في غزوة بدر الكبرى على
يد أمير المؤمنين علي «عليه السلام».

وَلِيَّ أبوه سعيد الكوفة من قبل الخليفة عثمان بن عفان
بعد أن عزل الوليد بن عقبة، فأهان سعيد أهلها على المنبر،
ثم قال: «إنما هذا السواد بستان لأُغِيلِمَةٍ من قريش»^(١). فلما
شكوه عند الخليفة انتقم منهم، وبقي يحكمها خمس سنين
تقريباً.

وعلى عهد معاوية بن أبي سفيان وَلِيَّ سعيدُ المدينة
المنورة مناوبةً بينه وبين مروان بن الحكم إلى أن مات سنة
٥٩ للهجرة.

كان ابنه عمرو والياً على مكة المكرمة من قبل معاوية، ثم
غدا والياً على المدينة أيضاً على عهد يزيد.

جاء في كتاب «إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري»
للقسطلاني: (سُمِّي عمرو بالأشدق لأنه صعد المنبر فبالغ
في شتم علي «رضي الله عنه» فأصابته لُقوة، أي داء في وجهه)^(٢).

روى ابن كثير عن الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة قال : (سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ليرَعَفَنَّ على منبري جبارٌ من جبابرة بني أمية حتى يسيل رَعافُهُ . قال : فأخبرني مَنْ رأى عمرو بنَ سعيد بن العاص رَعَفَ على منبر رسول الله ﷺ «صلى الله عليه وآله» حتى سال رَعافُهُ» ^(٣) .

✽ موقفه مع الإمام الحسين :

بعد أن تعرّفنا على هذه الشخصية - على عجالة - فلنتعرف على ما صدر عنها من محاولةٍ لثني الإمام الحسين «عليه السلام» عن الخروج .

رُوي أنَّ الأشدق أرسل رسالةً إلى الإمام بُعيدَ خروجه من مكة . وقد اعتبر بعضُ المحققين أنَّ سبب إرسال الرسالة من قبل عمرو بن سعيد الأشدق هو العداء والحسد والحقد، وأنَّ في مضمونها مكرٌ وخديعة للإيقاع بالإمام من خلال عودته إلى مكة لتدبير أمرٍ اغتياله .

ولكنَّ قراءة الحدث ضمن تفاصيله يُبيِّن أنَّ المسألة لم تكن بمبادرة شخصيةٍ من الأشدق، ولم تكن بدافع الحسد والحقد، ولا لترتيب أمر الاغتيال، بل كانت كما رواها

الطبري عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين «عليه السلام» كالتالي: (لَمَّا خَرَجْنَا مِنْ مَكَّةَ، كَتَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ مَعَ ابْنَيْهِ عَوْنٍ وَمُحَمَّدٍ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ لَمَّا انْصَرَفْتُ حِينَ تَنْظُرُ فِي كِتَابِي، فَإِنِّي مُشْفِقٌ عَلَيْكَ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي تَوَجَّهَ لَهُ، أَنْ يَكُونَ فِيهِ هَلَاكُكَ وَاسْتِئْصَالُ أَهْلِ بَيْتِكَ. إِنْ هَلَكْتَ الْيَوْمَ طَفَعَ نَوْرُ الْأَرْضِ، فَإِنَّكَ عَلِمَ الْمُهْتَدِينَ وَرَجَاءُ الْمُؤْمِنِينَ. فَلَا تَعْجَلْ بِالسَّيْرِ فَإِنِّي فِي أَثَرِ الْكِتَابِ، وَالسَّلَامُ»).

ثم روى الطبري أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ قَامَ إِلَى عَمْرٍو بْنِ سَعِيدٍ فَكَلَّمَهُ وَقَالَ: «اكَتُبْ إِلَى الْحُسَيْنِ كِتَابًا تَجْعَلُ لَهُ فِيهِ الْأَمَانَ وَتَمْنِيَهُ فِيهِ الْبِرَّ وَالصَّلَاةَ وَتُوثِقَ لَهُ فِي كِتَابِكَ وَتَسْأَلُهُ الرَّجُوعَ، لَعَلَّهُ يَطْمَئِنُّ إِلَى ذَلِكَ فِيرْجِعَ». فَقَالَ عَمْرٍو ابْنُ سَعِيدٍ: «اكَتُبْ مَا شِئْتَ، وَأَتْنِي بِهِ حَتَّى أَخْتِمَهُ». فَكَتَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ الْكِتَابَ).

وجاء الكتاب هكذا: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ عَمْرٍو ابْنِ سَعِيدٍ إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَكَ عَمَّا يُؤَبِّقُكَ، وَأَنْ يَهْدِيكَ لِمَا يُرْشِدُكَ. بَلَّغْنِي أَنَّكَ

قد توجَّهتَ إلى العراق، وإنِّي أعيدُكَ بالله من الشقاق، فإنِّي أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثتُ إليك عبدَ اللهِ بنَ جعفر ويحيى بن سعيد فأقبل إليَّ معهما، فإنَّ لك عندي الأمان والصلَّة والبرِّ وحُسن الجوار. لك اللهُ عليَّ بذلك شهيدٌ وكفيلٌ ومراعٍ ووكيل، والسلام عليك).

وهكذا سارع ابنُ جعفر إلى الوالي حاملاً الرسالة وطالباً منه أن يختمها بختمه ويبادر لإرسالها إلى الحسين: (ثم أتى به عمرو بن سعيد فقال له: اختمه وابعث به مع أخيك يحيى ابن سعيد فإنه أحرى أن تطمئنَّ نفسه إليه، ويعلم أنه الجدُّ منك. ففعل. وكان عمرو بن سعيد عاملَ يزيد بن معاوية على مكة. قال: فلحقه يحيى وعبدالله بن جعفر).

وتم تسليم الرسالة إلى الإمام الحسين «عليه السلام» فاطلَّع عليها ورفض محتواها، وكتب كتاباً كالتالي: (أما بعد، فإنه لم يُشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله «عز وجل» وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين. وقد دعوتُ إلى الأمان والبر والصلَّة، فخيرُ الأمان أمانُ الله. ولن يؤمنَ اللهُ يومَ القيامة من لم يخفه في الدنيا. فنسأل الله مخافةً في الدنيا توجبُ لنا أماناً يوم

القيامة. فَإِنْ كُنْتَ نَوَيْتَ بِالْكِتَابِ صَلَاتِي وَبِرِّي فَجُزَيْتَ خَيْرًا
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَالسَّلَامُ» ^(٤).

❁ تقييم الموقف:

١- شكك الإمام «عليه السلام» في ذيل الرسالة في دوافع الأشدق، حيث علق قيمة الرسالة على نيّة كاتبها، مما يؤكد شكوكنا في دوافع الكتاب. والأرجح عندي أنّ ما صدر عنه لم يكن أكثر من محاولة لخدمة الحكم الأموي من خلال تنيّي الإمام الحسين عن الخروج للإطاحة بهذا الحكم.

٢- صحّح الإمام الحسين «عليه السلام» - في ردّه - مفهوم شقاق الله ورسوله، وأكّد على أنّ الخروج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس شقاقاً، بل هو عين المسؤولية السماوية الملقاة على المؤمنين بالرسالة.

٣- أكّد الإمام الحسين «عليه السلام» على أن الأمان الحقيقي هو أمان الآخرة، وأنّ الأذى في سبيل الله وسيلة لنيل ذلك الأمان الحقيقي، وأنّ كل شيء - بالتالي - يُستَرَخَص في طريق نيل رضا الله «عز وجل».

والطريف في الأمر أنّ الأشدق بذاته ثار لاحقاً، وبالتحديد

في سنة ٦٨ للهجرة، حيث خرج على حكم عبدالملك بن مروان، مدّعيّاً أنه الأولى بالخلافة منه، فألقي القبض عليه ثم قُتل.. فهل كان مشاققاً لله ولرسوله بهذا الخروج أم لا؟

✽ النموذج الخامس، عبدالله بن الزبير بن العوام:

لا حاجة للإطالة في التعريف بشخصية ابن الزبير ومواقفه من أهل بيت النبوة، إذ يكفي قول الإمام علي «عليه السلام»: (ما زال الزبير منّا أهل البيت، حتّى نشأ له عبدالله)^(٥).

وأما الموقف الذي دار بينه وبين الإمام الحسين في تلك الظروف فقد نقل الطبري شيئاً منها في تاريخه، وذلك حيث انتقل الإمام إلى مكة المكرمة مؤقتاً، قال: (وأتاه ابن الزبير فحدّثه ساعة، ثم قال: «ما أدري ما تركنا هؤلاء القوم وكفّنا عنهم، ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم! خبرني ما تريد أن تصنع؟». فقال الحسين: «والله لقد حدّثت نفسي بإتيان الكوفة، ولقد كتب إليّ شيعتي بها وأشراف أهلها، وأستخير الله». فقال له ابن الزبير: «أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلتُ بها».

قال: ثم إنّه خشي أن يتهمه فقال: «أما إنك لو أقمت

بالحجاز ثم أردت هذا الأمر ها هنا، ما خُولِفَ عليك إن شاء الله». ثم قام فخرج من عنده^(٦).

❁ موقف آخر:

ولابن الزبير موقف آخر صدر عنه في يوم التروية، وهو اليوم الثامن من ذي الحجة، قبيل خروج الإمام من مكة نحو العراق، وفيه قال مخاطباً الحسين: ((لإن شئت أن تقيم أقمّت فوليت هذا الأمر، فأزرنك وساعدناك، ونصحنا لك وبابيعناك)). فقال له الحسين: ((إنّ أبي حدّثني أنّ بها كبشاً يَستحل حرمتها، فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش)).

فقال له ابن الزبير: فأقم إن شئت وتولّيني أنا الأمر، فتطاع ولا تُعصى)). فقال: «وما أريد هذا أيضاً» قال راويا الحديث وهما من بني أسد: (ثم إنهما أخفيا كلامهما دوننا فما زالا يتناجيان حتى سمعنا دعاء الناس راثحين متوجّهين إلى منى عند الظهر)^(٧).

❁ تقييم الموقف:

١- دوافع موقفى ابن الزبير لم تكن خافية على الإمام، فقد

قرأها الإمام بشكل واضح، ولم يخدعه الاستدراك الذي صدر عنه لاحقاً.. لذا نقل الراوي أن الإمام عقّب على كلامه الأوّل قائلاً: (ها، إنّ هذا ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحبّ إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق، وقد علّم أنّه ليس له من الأمر شيء، وأنّ الناس لم يعدلوه بي، فودّ أنّي خرجت منها لتخلوله)^(٨).

ولم يكن هذا خافياً على ابن عباس أيضاً فقال للإمام لاحقاً: («لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز والخروج منها، وهو اليوم لا ينظر إليه أحدٌ معك».... ثم خرج ابن عباس من عنده، فمرّ بعبدالله بن الزبير، فقال: «قرّت عينك يا ابن الزبير»^(٩)).

فقد كان ابن الزبير يطمح للحكم بشدة، ويرى لنفسه الحق في ذلك، ولذا بمجرد أن خرج الإمام من المدينة بدأت تحرّكاته بجمع الأنصار، ثم غادرها إلى مكة، ولم يزل مقيماً بها حتى خرج الإمام الحسين «عليه السلام» منها إلى العراق، فلزم ابن الزبير حجر إسماعيل «عليه السلام» وجعل يُحرّض الناس على بني أمية، ثم أعلن نفسه - بعد زمنٍ وتعاقبٍ من الأحداث - خليفة في

الحجاز حتى قُتل بمكة بأمر الخليفة الأموي وعلى يد الحجاج ابن يوسف الثقفي سنة ٧٣ للهجرة.

٢- كان تعريض ابن الزبير بالأمويين وعدم استحقاقهم لموقع الحكم واضحاً حيث قال: «ما أدري ما تركنا هؤلاء القوم وكفنا عنهم، ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم» وهي الحقيقة التي عرفها الصحابة والتابعون على الرغم من كل الجهود الأموية التي بُذلت من أجل تشويه الحقائق وتصوير الأمر وكأنهم أحقّ الناس بهذا الأمر، لأنهم من قريش، وقريش هم أهل النبي وعشيرته، وأن بني أمية كانوا المدافعين عن الإسلام، بينما كان بنو هاشم أعداءه على طول الخط!

روى المؤرخ الطبري في ضمن أحداث معركة صفين: (أنّ هاشم بن عتبة الزُّهريّ) ابن أخ الصحابي سعد بن أبي وقاص (دعا الناس عند المساء: «ألا مَنْ كَانَ يَرِيدَ اللَّهَ وَالْدارَ الآخرةَ فإليّ» فأقبلَ إِلَيْهِ ناسٌ كثير، فشدَّ في عِصَابَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ مراراً، فليسَ مِنْ وَجْهِهِ يَحْمِلُ عَلَيْهِ إِلَّا صَبْرٌ لَهُ وَقَاتَلَ فِيهِ قِتالاً شديداً، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «لا يَهولَنَّكُمْ مَا تَرَوْنَ

مِنْ صَبْرِهِمْ، فَوَ اللَّهِ مَا تَرُونَ فِيهِمْ إِلَّا حَمِيَّةَ الْعَرَبِ وَصَبْرَهَا
تَحْتَ رَايَاتِهَا وَعِنْدَ مَرَكَزِهَا، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى الضَّلَالِ، وَإِنَّكُمْ
لَعَلَى الْحَقِّ. يَا قَوْمَ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا واجتمعوا وامشوا بنا إِلَى
عَدُوِّنَا عَلَى تَوْدَةٍ رَوِيْدًا، ثُمَّ اثْبَتُوا وَتَنَاصَرُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ، وَلَا
يَسْأَلُ رَجُلٌ أَخَاهُ، وَلَا تُكَثِّرُوا الِالْتِفَاتِ، وَاصْمَدُوا صَمَدَهُمْ،
وَجَاهِدُوهُمْ مُحْتَسِبِينَ حَتَّى يَحْكَمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ». ثُمَّ إِنَّهُ مَضَى فِي عِصَابَةٍ مَجْمُوعَةٍ (مَعَهُ مِنَ الْقُرَّاءِ،
فَقَاتَلَ قِتَالًا شَدِيدًا هُوَ وَأَصْحَابُهُ عِنْدَ الْمَسَاءِ حَتَّى رَأَوْا بَعْضَ
مَا يُسْرُونَ بِهِ، قَالَ: فَإِنَّهُمْ لَكَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ فَتَى شَابٍ،
وَهُوَ يَقُولُ:

أَنَا ابْنُ أَرْيَابِ الْمُلُوكِ غَسَّانِ وَالدَّائِنِ الْيَوْمَ بَدِينِ عُثْمَانَ
إِنِّي أَتَانِي خَبْرٌ فَأَشْجَانِ أَنْ عَلِيًّا قَتَلَ ابْنَ عَفَّانِ
ثُمَّ يَشَدُّ فَلَا يَنْشِي حَتَّى يَضْرِبَ بِسَيْفِهِ، ثُمَّ يَشْتَمُ وَيَلْعَنُ
وَيُكْثِرُ الْكَلَامَ. فَقَالَ لَهُ هَاشِمُ بْنُ عَتَبَةَ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ
هَذَا الْكَلَامَ بَعْدَهُ الْخِصَامَ، وَإِنَّ هَذَا الْقِتَالَ بَعْدَهُ الْحِسَابَ،
فَاتَّقِ اللَّهَ، فَإِنَّكَ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ فَسَائِلُكَ عَنْ هَذَا الْمَوْقِفِ
وَمَا أَرَدْتَ بِهِ».

قَالَ : «فَإِنِّي أَقَاتُلُكُمْ لِأَنَّ صَاحِبَكُمْ لَا يُصَلِّي كَمَا ذَكَرَ لِي، وَأَنْتُمْ لَا تُصَلُّونَ أَيَّضاً، وَأَقَاتُلُكُمْ لِأَنَّ صَاحِبَكُمْ (أي الإمام علي) قَتَلَ خَلِيفَتَنَا، وَأَنْتُمْ أَرَدْتُمُوهُ عَلَى قَتْلِهِ!». .

فَقَالَ لَهُ هَاشِمُ : «وَمَا أَنْتَ وَابْنُ عَفَانَ؟ إِنَّمَا قَتَلَهُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ وَأَبْنَاءُ أَصْحَابِهِ وَقُرَّاءُ النَّاسِ حِينَ أَحْدَثَ الْأَحْدَاثَ وَخَالَفَ حُكْمَ الْكِتَابِ، وَهُمْ أَهْلُ الدِّينِ وَأَوَّلَى بِالنَّظَرِ فِي أُمُورِ النَّاسِ مِنْكَ وَمِنْ أَصْحَابِكَ، وَمَا أَظُنُّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَمْرَ هَذَا الدِّينِ أَهْمَلَ طَرْفَةَ عَيْنٍ».

فَقَالَ لَهُ : «أَجَلُ وَاللَّهِ، لَا أَكْذِبُ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ». .
قَالَ : «فَإِنَّ أَهْلَ هَذَا الْأَمْرِ أَعْلَمُ بِهِ، فَخَلَّهْ وَأَهْلُ الْعِلْمِ بِهِ». قَالَ :
مَا أَظُنُّكَ وَاللَّهِ إِلَّا نَصَحْتَ لِي».

قَالَ : «وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّ صَاحِبَنَا لَا يُصَلِّي، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ صَلَّى، وَأَفْقَهُ خَلَقَ اللَّهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَأَوَّلَى بِالرَّسُولِ، وَأَمَّا كُلُّ مَنْ تَرَى مَعِيَ، فَكُلُّهُمْ قَارِئُ لِكِتَابِ اللَّهِ، لَا يَنَامُ اللَّيْلَ تَهْجِجاً، فَلَا يَغْوِينِكَ عَنْ دِينِكَ هَؤُلَاءِ الْأَشْقِيَاءُ الْمَغْرُورُونَ».

فَقَالَ الْفَتَى : «يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنِّي أَظُنُّكَ أَمْرًا صَالِحًا، فَتَخْبِرُنِي هَلْ تَجِدُ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟» ^(١٠) .

✽ النموذج السادس ، المِسور بن مخرمة الزُّهري :

في «مختصر تاريخ دمشق»: (وكتب إليه المِسور بن مخرمة: «إيّاك أن تغترّ بكتب أهل العراق، ويقول لك ابن الزبير: الحق بهم فإنّهم ناصروك. إيّاك أن تبرح الحرم، فإنهم إن كانت لهم بك حاجة، فسيضربون آباط الإبل حتى يوافوك، فتخرج في قوة وعُدّة». فجراه خيراً، وقال: «أستخير الله في ذلك»^(١١)).

✽ تقييم الموقف :

لا نستطيع الجزم بصدور هكذا رسالة من ابن مخرمة أو نفي ذلك، وذلك بلحاظ سيرته وتاريخه. فقد توفي رسول الله «صلى الله عليه وآله» والمِسور في حدود الثامنة من عمره.. حيث وُلد بمكة بعد الهجرة بعامين، وقدم المدينة مع أبيه بعد الفتح سنة ثمان، وهو غلام ابن ست سنين، ولكنّه كان يحاول لاحقاً أن يؤكّد على أنه كان أكبر من ذلك بكثير، كي تكون رواياته عن النبي موضع قبول الناس! ومن بين رواياته التي تجعلنا نشك في سلوكه وصدور

الرسالة السابقة عنه ما رواه ابن حنبل ومسلم وغيرهما عن ابن شهاب الزُّهري: (أَنَّ عَلِيَّ بنَ الحُسَيْن حَدَّثَهُ أَنَّهُم قَدِمُوا المَدِينَةَ مِنْ عِنْدِ يَزِيدَ مَقْتَلِ الحُسَيْنِ بنِ عَلِيٍّ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»، فَلَقِيَهُ المَسُورُ بنُ مَخْرَمَةَ فَقَالَ: «هَلْ لَكَ إِلَيَّ مِنْ حَاجَةٍ تَأْمُرُنِي بِهَا؟». قُلْتُ: «لَا». قَالَ: «هَلْ أَنْتَ مُعْطِي سَيْفَ رَسولِ اللهِ «صلى الله عليه وآله»؟ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَغْلِبَكَ القَوْمُ عَلَيْهِ! وَأَيُّمُ اللهُ لئنْ أُعْطِيتَنِيهِ لَا يُخَلِّصُ إِلَيْهِ أَبَدًا حَتَّى تَبْلُغَ نَفْسِي»).

ثم يكمل المسور كلامه بذكر أمر غريب لا يتناسب مع الموقف، ولا يستطيع أحدنا تفهّم سبب ذكره سوى الإساءة إلى الإمام وجده علي بن أبي طالب بسبب عدم تجاوب الإمام معه في طلبه السابق، أو أنها وسيلة ابتزاز في مقابل الحصول على ذلك السيف! وكأنّه يقول للإمام: أنت بين خيارين، إما أن تعطيني السيف، وإما أن أنشر هذه الأكذوبة بين الناس فأشوّه سيرة عليّ كما شوّهها الأمويون من قبل! قال: («إِنَّ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ خَطَبَ ابْنَةَ أَبِي جَهْلٍ فَسَمِعْتُ رَسولَ اللهِ «صلى الله عليه وآله» وَهُوَ يَخْطُبُ النّاسَ فِي ذَلِكَ عَلَى منبرِهِ هَذَا - وَأَنَا يَوْمَئِذٍ مُحْتَلِمٌ - فَقَالَ: «إِنَّ فَاطِمَةَ بَضْعَةٌ

منّي، وأنا أتخوّف أن تُفْتَنَ في دينها». ثم ذكر) أي النبي (صِهراً له من بني عبد شمس) وهو أبو العاص زوج زينب (فأثنى عليه في مصاهرته إياه فأحسن. قال :) أي النبي («حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي) وفي هذا تعريض بالإمام علي بأنه لم يكن صادقاً ولم يلتزم بوعده (وإنّي لست أحرّم حلالاً ولا أحلّ حراماً، ولكن والله لا تجتمع ابنة رسول الله «صلى الله عليه وآله» وابنة عدو الله مكاناً واحداً أبداً»^(١٢)).

هذا النص ونصوص أخرى من قبيل تردّد الخوارج على المسور، وأخذهم عنه، تجعلنا نشك في نيّته حين حاول ثني الإمام عن الخروج إذ كتب إليه بذلك - إن كان قد كتبها فعلاً - وإن لم نستطع الجزم بأن موقفه شبيه بموقف الزبير الذي لم يكن حريصاً على الإمام، على الرغم من أنّ المسور سينصر ابن الزبير لاحقاً ضد يزيد، وسيقتل في الهجوم الذي تم على مكة بأمر يزيد حين رميت الكعبة بالمنجنيق، فأصيب المسور بحجر من حجارته ومات سنة ٦٤ للهجرة. كما أن الرد المقتضب من قبل الإمام الحسين بحسب الرواية يُبقي الأمر غامضاً.

✽ تقييم الشهيد الصدر :

وللشَهِيد السيد محمد باقر الصدر «رحمه الله» تفسير للمواقف الصادرة من المخلصين للإمام الحسين والذين كانوا صادقين معه في نصحتهم، حيث اعتبر أنها تمثل : (حالة انعدام الإرادة مع وضوح الطريق).

حيث اعتبر أنَّ الطريق إنما اتَّضح للأمة بعد أن استطاع الذين سرقوا شخصيَّتها وزوَّروا إرادتها أن يجعلوها غير قادرة على مجابهة موقفٍ من هذا القبيل، فنامت وفقدت إرادتها. ثم تناول السيد الصدر مشاهدٍ من واقع التاريخ مما استعرضنا بعضه، معتبراً أنَّ أصحاب تلك الكلمات والمواظم هم : (مَنْ يُسمَّون يومئذٍ بعقلاء المسلمين الذين يُؤثِّرون التعقُّلَ على التهور)، وقد أجمعت كلمتهم على أنَّ هذا (التصرف من الإمام الحسين ليس تصرفاً طبيعياً، كانوا يخوِّفونه بالموت، كانوا يقولون له: كيف تثور على بني أمية وبنو أمية بيدهم السلطان، والرجال، والمال وكلّ وسائل الإغراء والترغيب والترهيب؟!)

كانوا يحدِّثونه عن النتائج التي وصل إليها الإمام علي في

صراعه مع بني أمية، والتي وصل إليها الإمام الحسن في صراعه مع بني أمية، كانوا يمتنونه السلامة... هذه النصائح لم يتلقها الإمام الحسين من رعا، أو من عوام، وإنما تلقاها من سادة المسلمين، من الأشخاص الذين كان بيدهم الحلّ والعقد في المجتمع الإسلامي، تلقاها من أشخاص من قبيل عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن جعفر الطيار، ومن قبل أخيه محمد ابن الحنفية ومن قبل غيرهم من سادة الرأي في المجتمع الإسلامي). وأضاف الشهيد الصدر محلاً الموقف: (هذه النصائح كانت تعبر عن نوع من الانهيار النفسي الكامل الذي شمل زعماء وسادة المسلمين، فضلاً عن الجماهير التي كانت تعيش هذا الانهيار مضاعفاً في أخلاقها وسلوكها وأطماعها ورغباتها).

واعتبر الشهيد الصدر أن تصرف عبد الله بن جعفر الذي استتبع كتابة الرسالة باسم والي مكة قد جعل ابن جعفر يتصور أنه: (استطاع بهذا أن يقضي على كل مبررات خروج الحسين! لماذا يخرج الحسين من مكة؟ لأنه خائف فيها

وقد جاء الأمان له من سلاطين بني أمية).

ثم يأتي الشهيد الصدر بشواهد أخرى لم نذكرها في بحثنا، ويبدأ بمشهد من البصرة حيث أرسل الإمام إلى مجموعة من شخصياتها من: (الذين يرتبطون بمدرسة الإمام عليّ) فماذا يكون ردّ فعلهم؟ (يكون رد الفعل - إذا استثنينا شخصاً واحداً وهو عبد الله بن مسعود النهشلي الذي كتب مستجيباً - هو البرود المطلق، أو الخيانة، إذ يبعث أحدهم برسول الحسين إلى عبيد الله بن زياد، وكان وقتئذٍ والياً على البصرة... فأمر عبيد الله بن زياد بالرسول فقتل «رضوان الله عليه»).

ويستغرب الشهيد الصدر من موقف أحد قادة الإمام علي وأنصاره.. كيف خذل الحسين وهو ابن علي، قال: (شخص آخر من هؤلاء الزعماء، الأحنف بن قيس الذي عاش مع خطّ جهاد الإمام علي وعاش مع حياة الإمام عليّ عن قرب، وتربّى على يديه. ماذا كان جوابه لابن الإمام عليّ؟ أمره بالتصبر والتريث.

وفي الواقع كانت رسالة الأحنف تعبر عن أخلاقية الأمة

المهزومة، فإنَّ الأُمَّة في حالة تعرّضها للهزيمة النفسية، وفي حالة فقدانها لإرادتها وعدم شعورها بوجودها كأُمَّة تنشأ لديها بالتدريج أخلاقية معيّنة هي أخلاقية هذه الهزيمة. وأخلاقية هذه الهزيمة تصبح قوّة كبيرة جدّاً بيد صانعي هذه الهزيمة لإبقاء هذه الهزيمة وإمرارها، وتعميقها وتوسيعها، ويصبح العمل الشجاع تهوراً، والتفكير في شؤون المسلمين استعجالاً، ويصبح الاهتمام بما يقع على الإسلام والمسلمين من مصائب وكوارث نوعاً من الخفّة واللاتعقّل.. نوعاً من العجلة وقلة الأناة.. نوعاً من التسرّع في العمل أو التفكير).
 المشهد الآخر الذي يستشهد به الشهيد الصدر مؤكداً نظريّته التحليلية لمواقف الخاذلين كان بالقرب من الكوفة وكربلاء حيث: (يذهب حبيب بن مظاهر ليطلب العون والمدد من عشيرة بني أسد للإمام عليه الصلاة والسلام، وتكون النتيجة لذلك أن تغادر عشيرة بني أسد بأجمعها تلك الليلة المنطقة، وتنسحب هذه العشيرة انسحاباً إجماعياً، ويرجع حبيب بن مظاهر ليبلّغ الإمام الحسين هذه النتيجة الغربية وهي: أنَّ عشيرته تخشى أن تبقى بعد اليوم، تخشى

أن تبقى حتى حيادية، لأنه قد لا يكتفي عمر بن سعد بهذا الحياء، فتغادر المنطقة نهائياً).

ويضيف السيد الصدر أنّ من بين أسباب إصرار الإمام على الخروج - ولو أدى الأمر إلى تضحية كبرى بحجم ما جرى في كربلاء - هو معالجة الأمة من هذا المرض، قال: (فبقدر ما يكون هذا المرض عميقاً في جسم الأمة، يجب أن تكون التضحية أيضاً عميقة مكافئة لدرجة عمق هذا المرض في جسم الأمة. وهذا المرض كان يشمل كلّ قطاعات الأمة عدا بصيص هنا وهناك...) ^(١٣).

✽ ثورة القيم:

وهكذا خرج الحسين «عليه السلام»، وثبت معه المؤمنون بأهداف حركته ونهضته، حتى إذا اتضحت الصورة وهو محاصر بالقرب من الكوفة، وعلم أنّ القوم خاذلوه لا محالة، وأنّ أنصار بني أمية لا يريدون له إلا الهوان بمبايعة يزيد عن صغار، اتخذ قرار المواجهة والتضحية ليهزّ ضمير الأمة ويعيد إليها شيئاً من الإرادة التي فقدتها، والكرامة التي تخلّت عنها، وهو ما تحقق.. ولكن بعد أن أريق الدماء الزاكيات

على أرض كربلاء.. وبعد أن استُبِيحت الحُرَمَات.. وقُطِفَت
الرؤوس.. وتهشَّمت الصدور.. ورُوِّع الأطفال.. وسُبِّيت
نساء آل الرسول.. إنه الثمن الغالي الذي استرخصه سيد
الشهداء ما دام أنه لله.. وبعين الله.



المصادر والتعليقات الختامية:

- ١- ابن عساكر: تاريخ دمشق: ج ٢١، ص ١١٤.
- ٢- القسطلاني: إرشاد الساري، ج ٤، ص ٣٦٨.
- ٣- ابن حنبل: المسند، ح ١٠٧٧٤.
- ٤- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٩٧.
- ٥- ابن الأثير: أسد الغابة، ترجمة عبدالله بن الزبير.
- ٦- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٩٥.
- ٧- ن.م.
- ٨- ن.م.
- ٩- ن.م.
- ١٠- ن.م. ص ٩٩.
- ١١- ابن عساكر: تاريخ دمشق: ج ١٤، ص ٢٠٨-٢٠٩.
- ١٢- ابن حنبل: المسند، ح ١١٧٢.
- ١٣- من محاضرتين للشهيد الصدر صدرتا لاحقاً في كتيب تحت عنوان: التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقية الهزيمة.

الجهاد . القسم الأول

كيف نفهم الجهاد؟ وما الهدف من تشريعه؟ أليس للإنسان حُرمة وحق في الحياة؟ فكيف يُسَمَح بقتال غير المسلم وسلب حق الحياة منه؟ هل انتشر الإسلام بالقوة؟ وهل الإسلام ضعيف من حيث الحُجَّة والديلي كي يلجأ إلى السلاح بهدف لنشره؟

الخوض في موضوع الجهاد والإجابة على التساؤلات

السابقة يحتاج إلى ذكر بعض المقدمات :

❁ المقدمة الأولى :

المبدأ العام الذي شرّعه الإسلام لتنظيم علاقات الإنسان مع أبناء جنسه هو ما جاء في قوله «عز وجل» : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١) .

فالتعارف والتلاقي والتواد والتعايش والتكامل هي الصورة العامة التي يريدّها الله «عز وجل» لطبيعة العلاقات التي تجمع الناس بعضهم ببعض . وهذه الصورة العامة لا تتحقق إلا من خلال ركائز معينة، من أهمها : التسامح والعدل .

❁ ركيزة التسامح :

العلاقات الإنسانية والتفاعل بين البشر لا بد وأن تشهد التنافس والاختلاف والتصارع، إذ يمتلك الإنسان غرائز عديدة تلحّ عليه بإشباعها وتلبية حاجاتها، كحب الذات والرغبة في التملك والقوّة الغضبية والشهوة الجنسية .

وعند تزامن المصالح بين الأفراد، قد تتوتر الأجواء، ممّا

يؤهل الأمور إلى الدخول في دائرة العُنف، فيتحوّل التوتر والغضب إلى صراع أو عدوان على المال أو الجسد أو الشخصية أو الحُرُمات أو غير ذلك.

ولربما تأخذ الأمور منحىً آخر حيث يلجأ أحد الأطراف إلى الحيلة والمكيدة والخداع من أجل التغلب على المنافس والحصول على ما يريد.

وسواء أكان هذا أو ذاك، فإنَّ النتيجة الطبيعية لكل ذلك هو احتمال وقوع النزاع أو الاقتتال أو العدوان.

ولكي نخفّف من وطأتها ونتائجها واحتمال امتدادها وتوسّعها، ومن ثمّ إعادة العلاقات الإنسانية إلى مسار غايتها الحقيقية - أعني التعارف - فإنه لا بد من وضع قواعد للمعالجة ضمن أسس معيّنة، وإلا تحوّلت إلى بؤر أزمات لتوليد المزيد من أوجه الصراع والنزاع والعدوان.

والتسامح من أهم تلك القواعد، وقد قال الله «عز وجل» في بيان الدور الفاعل للتسامح في هذا الإطار: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٢).

إنَّ الرحمة التي تنبع من قلب المسلم من خلال التسامح لا يراد لها أن تكون سذاجة أو حماقة أو ضعفاً، بل محاولة لتفادي التخاصم والتنازع والحقد والعداوة، وإحلال روح المحبة والتعاطف محلها، أو أن يكون التسامح سبيلاً لفكّ خصومة واقعة وتحويل العلاقة المتأزّمة إلى علاقة توادّ وتصافي وتراحم وتعاون.

✽ ركيزة العدل:

أمّا العدل فيُعتبر الأسلوب الإيجابي الصارم الذي يعالج به الإنسان مشاكل حياته في نطاق اتصالها بالآخرين، حيث يخفّف من جموح غريزة العدوان في النفس، ومن طغيان الأثرة والحقد والحسد وغيرها من نوازع الشر، بوضع الحدود المادية التي توقفه عند حد معين لا يتجاوزه.

قال الله «عز وجل»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣).

وعليه، فإنَّ حقَّ المُعتدى عليه مُصانٌ بالاقتصاص من

المُعْتَدِي، بالعدل ودون تجاوز الحد.. كما أَنَّ بابَ التسامح والعفومفتوحٌ لوأختار ذلك، وسيكون عفواً ذا قيمة وعزّة، لأنّه عفوّ عن قُدرة.. عفوّ بعد تملّك حقّ الاقتصاص العادل.

❁ المقدمة الثانية :

الخطوط العامة لأسلوب الدعوة إلى الإسلام تتمثل في قوله «عز وجل»: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٤).

فالإسلام يسعى ابتداءً إلى أن يفتح للناس أبواب المعرفة واسعة، قبل أن يدعوهم إلى الإيمان به، ليكون الإيمان واعياً عميقاً، وليكون الالتزام به التزاماً حراً ومسؤولاً، لا إكراه فيه ولا قسراً.

وهذا ما عناه الله «عز وجل» في قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٥).

وكانه «عز وجل» يخاطبنا قائلاً: هذا طريق الحق فاتبعوه، قد

بَيَّنْتُ لَكُمْ علائمه، وَأَقَمْتُ لَكُمْ الْحُجَجَ والبراهين الواضحة عليه.. وذلك طريقَ الباطل فاجتنبوه، وقد بَيَّنْتُ لَكُمْ علائمه، وَأَقَمْتُ لَكُمْ الْحُجَجَ والبراهين الواضحة على خطره..
فإنَّ سلكتم طريقَ الحق تهتدوا، ولكنِّي لا أكرِهكم على سلوكه.. الاختيارُ بأيديكم، وسأترككم لتتحملوا مسؤولية أنفسكم، وإنَّ سلكتم طريقَ الباطل ستضلُّوا، ولنْ أمنعكم.. ولكنكم ستتحملون تبعات ذلك.

هذا المعنى يؤكده قوله «عز وجل»: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١)، وعدم الإكراه يتوافق مع الصورة العامة التي يُخَطِّطُ لها الإسلام في رسم معالم العلاقات الإنسانية، وبيانه لغاية التنوع البشري.. وهو التعارف لا التصادم.

ولكن يبقى أنَّ للإسلام موقفٌ مختلفٌ مع حركة دُعاة الشرِّ أو الباطل.. فحرية الاختيار لا تعني السَّماح لدعاة الشرِّ أو الباطل أنْ يُضِلُّوا الناس.. ففرقٌ بين أنْ تسمح للإنسان أنْ يختار ويتحمَّل تبعَةَ اختياراته، وبين أنْ تسمح له بأنْ يُضِلَّ الآخرين ويعرِّضهم إلى المفاسد والانحلال.

❁ المقدمة الثالثة :

للحياة قيمة كبيرة، والتشريع لا ينتهك حرمتها، ولا يشرع ما يؤدي إلى إباحة قتل النفس البشرية، إلا ضمن استثناءات خاصة جداً، من قبيل أن يكون هذا الإنسان قد تعمّد - ظلماً وعدواناً - إزهاق نفس محترمة، فحينذاك يكون الاقتصاص بإعدامه وسلبه حقّ الحياة أمراً مشروعاً من خلال القانون العادل الذي يحكم بالأدلة القطعية دون شبهة أو شك .

قال «عز وجل» : ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ^(٧) .

أما من يعتدي على حق الحياة لإنسان آخر خارج نطاق هذا الاستثناء، فقد ارتكب جُرمًا كبيراً، لا بحق الفرد فحسب، بل بحق البشرية جمعاء : ﴿مِنَ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وقد قام رسل الله ببيان هذا الأمر وخطورته،

والتحذير من تجاوزه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴿١﴾ إِلَّا أَنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَمْ يَلْتَمِزُوا بِذَلِكَ، بَلْ وَأَسْرَفُوا فِي الْعُدْوَانِ عَلَى حُرْمَةِ الْحَيَاةِ: ﴿٢﴾ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣﴾﴾^(٨).

❁ لماذا الجهاد؟

بعد هذه المقدمات يأتي دور السؤال المهم والحساس: إذا كان الأمر كذلك، على مستوى طبيعة العلاقات الإنسانية، وعلى مستوى أسلوب الدعوة وحرية الإنسان، وفي ما يتعلق بحرمة الحياة، فلم الجهاد والقتال والحرب؟

لَمْ كُلْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَمْرَةَ بِالْقِتَالِ، وَالتَّحْرِيسُ عَلَيْهِ، وَالدَّفْعُ نَحْوَ الْعَطَاءِ الْمَالِي فِي هَذَا الطَّرِيقِ، وَتَشْجِيعُ الْمُقَاتِلِينَ بِوَعْدِ دُنْيَوِيَّةٍ، مِنْ قَبِيلِ تَحْقِيقِ النِّصْرِ وَالْغَنَائِمِ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا، وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٩﴾﴾؟

وبعودٍ استثنائيةٍ تخصَّ عالم البرزخ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ، فَرَحِّينَ

بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ.. ﴿١٠﴾ .

وبعود تخصّ الحياة الأخروية في جنان الخلد: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (١١) .

هذا ما سنحاول الإجابة عليه من خلال القسم الثاني من هذا البحث بإذن الله «عز وجل» .



المصادر والتعليقات الختامية:

- ١- الحجرات: ١٣.
- ٢- فصلت: ٣٤.
- ٣- النساء: ١٣٥.
- ٤- النحل: ١٢٥.
- ٥- البقرة: ٢٥٦.
- ٦- يونس: ٩٩.
- ٧- المائدة: ٤٥.
- ٨- المائدة: ٣٢.
- ٩- الفتح: ١٨-١٩.
- ١٠- آل عمران: ١٦٩-١٧٠.
- ١١- آل عمران: ١٩٥.

الجهاد . القسم الثاني

كان السؤال الرئيسي الذي طرحته في القسم الأول من البحث حول الجهاد: كيف نفهم الجهاد؟
 وفرّعت على ذلك عدة أسئلة تتمثل في ما يلي: ما الهدف من تشريع الجهاد؟ أليس للإنسان حُرمة وحق في الحياة؟ فكيف يُسمَح بقتال غير المسلم؟ هل انتشر الإسلام بالقوة؟ وهل الإسلام من الضعف في مقام الحجّة والدليل كي يلجأ

إلى السلاح بهدف نشره؟ ثم قدّمتُ ثلاث مقدمات تمهيدية وضرورية:

الأولى: أن الإطار العام للعلاقات بين الناس هو التعارف، وأهم ركائز ذلك هو العدل والتسامح.

الثانية: الخطوط العامة لأسلوب الدعوة إلى الإسلام هي الحكمة والموعظة الحسنة.

الثالثة: العدوان على حق الفرد بالحياة - من دون مسوّغ - بمثابة العدوان على البشرية جمعاء.

بعد هذه المقدمات يأتي دور السؤال المهم والحساس: إذا كان الأمر كذلك، على مستوى طبيعة العلاقات الإنسانية، وعلى مستوى أسلوب الدعوة وحرية الإنسان، وفي ما يتعلق بحرمة الحياة، فلمَ الجهاد والقتال والحرب والتشجيع عليه؟

❁ غايات الجهاد:

لوعدنا إلى القرآن الكريم سنجد أن الإطار الذي يجمع صور القتال والجهاد هو الكون في سبيل الله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ^(١) .. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا

فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ .
 هذا الإطار الكبير والواسع تتجلى فيه غايات القتال تحت
 عناوين متعددة بحسب الظروف والمعطيات .. وقد تناولت
 الآيات القرآنية بيان ذلك، ويمكن تصنيفها وفهرستها من
 حيث غايات القتال كما يلي :

✽ الغاية الأولى :

حماية العقيدة من الاضطهاد من قِبَلِ أعدائها، حيث أنَّ
 الدعوة تعتمد في الأساس على الأسلوب السِّلْمِي، فماذا
 لو ووجهت بالعنف والاضطهاد ومحاولة القضاء عليها؟
 حينذاك ستفرض الظروف طبيعة وكيفية المواجهة..
 ففي العهد المَكِّي لم تسمح المعطيات بأن يُواجه عُنْفُ
 المشركين المستمر والوحشي بحقِّ الرسول والرسالة وأتباعها
 بعنفٍ مضاد، ولذا جاء الأمر مكرراً بالصبر والتواصي بالصبر
 والاستمرار في الدَّعوة والتغافل عن والتجاوز عن العدوان
 وحتَّى الدَّفْع نحو الهجرة الجزئية لِمَن لم يُعدَّ يحتمل الأوضاع
 الضاغطة .. قال الله «عز وجل» : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ
 لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٣) .

وقال «عز وجل»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝﴾^(٤).

ولكن عندما تهيأت الظروف لكبح جماح الاستكبار القرشي، ودفع عدوان المشركين، جاء الأمر بمواجهة العنف بعنفٍ مثله، لعله يكون رادعاً لهم، وباباً لتهيئة الظروف المناسبة لإيصال كلمة الرسالة إلى الذين طالما أصمّوا أسماعهم عنها، وأرهبوا الآخرين وحرّضوهم على الصّدود: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ۝﴾^(٥).

وأما حقيقة موقف المشركين فهو: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۝﴾^(٦)، ولذا جاء الأمر بالقتال كما في قوله «عز وجل»: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ۝﴾^(٧).. والفتنة يمكن تصوّرها عند السماح لأعداء الدين

بأن يمارسوا كل أساليبهم الإرهابية والدعائية وأنواع الحصار والضغط لاضطهاد المؤمنين، ولمنع أصحاب الرسالة من أن يقوموا بدورهم في بيان كلمة الله، ولخنق حرية الدعوة الإلهية ووضع العراقيل أمامها.

وهكذا نفهم علة السرايا والمجاميع العسكرية والاستكشافية التي انطلقت بأمر النبي «صلى الله عليه وآله» منذ الشهر الثامن من العام الأول للهجرة.. فالمسألة لم تكن بهدف قطع الطريق أو الحصول على الغنائم، كما يحاول بعض المستشرقين والمتأثرون بهم تصوير الأمر، بل بهدف فرض هيبة الكيان الجديد الذي بدأ يتشكل في المنطقة، ولردع استكبار وعدوان قريش، ولمواجهة حصار التحالفات الذي فرضه القرشيون مع حلفائهم من الأعراب، ولإزعاج قريش وإرغام أنفها بالتحرش بطريق قوافلها التجارية، وهو عصب الحياة بالنسبة إليها، لعلها تتنازل عن شيء من كبريائها وعدوانها المستمر، وتستمع إلى صوت العقل.

ومن هنا نعرف لماذا ردَّ النبي «صلى الله عليه وآله» الغنيمة التي نالتها سرية المسلمين من قريش في «بطن نخلة» في شهر

رجب الحرام، التزاماً بالمبادئ، واحتراماً للشهر، ولأن الغاية لم تكن كسب الغنيمة.

وقد وجه الله «عز وجل» المسلمين في قتالهم أن يكونوا المبدئين الذين لا يبطرون ولا ينطلقون من خلال حالة استكبارية أو استعراضية، بل تكون غايتهم رضا الله وفتح آفاق الهداية للآخرين، وصدّ العدوان عن المؤمنين والمستضعفين: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾^(٨).

فقد خرجت قريش بصورة استعراضية في أجواء غزوة بدر الكبرى، إعجاباً بقوتها واستهزاءً بالمسلمين، وأخذت معها القيان يضربن بالدفوف ويغنين، وكان نحر الإبل وإطعام أهل الطريق حالة استعراضية ومجرد رياء، لا إشفاقاً على المحتاجين، ولا رحمةً بالمستضعفين. يُضاف إلي ذلك أن الغرض الأساسي من خروجهم للقتال هو التصدي للإسلام والمسلمين: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

❁ الغاية الثانية:

الانتصار للمضطهدين والمستضعفين ضد القوى الظالمة

والمعتدية والمستكبرة، والتي تعمل على فتنهم عن دينهم بمختلف وسائل الضغط من التعذيب والعدوان على الممتلكات، فهم إنما : ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ ^(٩) ... ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ ^(١٠) ، ولذا جاء الأمر حاسماً : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ^(١١) ، ونفت أي إشكال قد يتبادر إلى الأذهان جرأ صدور هذا الأمر : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ^(١٢) .. فالأمر منطقي ومشروع.

❁ الغاية الثالثة :

الدفاع عن كيان الإسلام من العدوان الحربي ضد المسلمين ومؤسساتهم : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ ^(١٣) ، وهذا العدوان دائم ومستمر، لأنه صراع بين الحق والباطل، وهذا النوع من الصراع لم يتوقف منذ بداية الوجود البشري : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ ^(١٤) ، وعدم اتّخاذ أي إجراء قوي

وحاسم في هذا الاتجاه ستترتب عليه نتائج وخيمة على أكثر من مستوى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(١٥).

بل إنَّ الحكمة تستدعي التحصن والوقاية من أي عدوان مستقبلي محتمل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(١٦) كما أنها تستدعي مواجهة

القوة بالقوة عند الإمكان، وهو ما قام به الأنبياء «عليهم السلام»

عندما اضطروا لمواجهة العدوان بالقوة، وهو ما يرمز إليه الحديد في قوله «عز وجل»: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١٧).

❁ الغاية الرابعة:

مواجهة حالات نكث المواثيق والعهود التي يعمد إليها أعداء الإسلام من أجل القضاء عليه أو الإيغارة على ذلك، وهو ما نجد الآيات الأولى من سورة التوبة تتحدث عنه وتعالجه بصورة مفصلة: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ، أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ^(١٨).

وقد يتساءل البعض: كيف نعالج مسألة نقض المواثيق من جهة المسلمين أنفسهم، وهو ما جاءت به بعض آيات سورة التوبة حيث يقول «عز وجل»: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ^(١٩)؟

الجواب عن ذلك يحتاج إلى دراسة النص ضمن سياق الحدث التاريخي الذي نزل فيه، وقد أشارت بعض آيات هذه السورة إلى جوانب منه: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَابَى قُلُوبُهُمْ

وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ، اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ .

إنَّ واقع هؤلاء أنَّهم كانوا يعاهدون ويصالحون لا قناعة منهم بذلك، بل شعوراً منهم بالضعف، ورغبةً منهم بتحسين الفرص لتنفيذ مخططاتهم بالقضاء على الإسلام أو إضعاف مواطن القوة عند المؤمنين، وذلك بالتعاون السري مع كل الأطراف الحاقدة أو المتربصة بالإسلام الدوائر، كاليهود والروم والفرس ومنافقي الأعراب وقريش والمدينة!

ولذا فإنَّهم هم الذين بادروا بنقض المواثيق مع المسلمين في الباطن من خلال تحركاتهم السريّة ومخططاتهم المشؤومة، الأمر الذي يُعطي المبرّر الكافي لنكث الميثاق علناً من قبل المسلمين وإعلان البراءة.

أمّا الفئة التي لم تُنكث العهد ولم تُخطّط مع الأعداء ضدّ الإسلام والمسلمين لا في السر ولا في العلن فهي غير مشمولة بهذا الأمر: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ

عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٢١﴾ .

إِنَّ الإسلام لا يرتضي العدوان، ولو كان بحق المشركين،
فالمبادئ لا تتجزأ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ
وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٢٢) .

❁ الدعوة الإسلامية:

إن المقدمات التي قدّمناها، علاوة على غايات القتال التي
أتينا عليها حتى الآن تؤكد على أن الإسلام إنما جاء رسالة
عالمية ودعوة شاملة للناس جميعاً، فلا بد له من ممارسة
دعوته في حرية تامة، لأنه يعتمد في ذلك على الإقناع، وهو
لن يتحقق إلا إذا أتيح للناس فهم هذه العقيدة الجديدة
والإطلاع على ما فيها من مبادئ وقيم وأخلاقيات ومنابع
هداية ومعارف وأسباب تحقيق سعادة الدارين.

ومن الطبيعي عدم توفر مثل هذا الجوفي ظل الظروف
العصيبة، التي يعاني فيها المجتمع ضغط القوى الكافرة
المستكبرة وعدوانها، الأمر الذي يجعل القيام بصدّ هذه
القوى عملية دفاعية محضة، تمارس فيها العقيدة قضية
الدفاع عن حياتها ووجودها.

إِنَّ النَّبِيَّ الْأَكْرَمَ «صلى الله عليه وآله» لَوُتْرِكَ وشأنه ولم يَتَعَرَّضْ له المشركون ويقفوا أمام دعوته ويضطهدوا أتباعه ويصدوهم عن سبيل الله ويُخرجوهم من أوطانهم، لما شَنَّ حرباً، وما سَلَّ سيفاً، ولما كان هناك قتال .

❁ الغاية الخامسة :

الدفاع عن النفس والعباد والبلاد دون أن ترتبط بالإسلام ودولته: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ^(٢٣) .

فالله لا يرضي الظلم والاعتداء على النفوس والحقوق والحُرُمات، وقد أَكَّدَت بعض النصوص على أَنَّ المقتول في هذا الطريق يُحْتَسَب مع الشهداء، وإن لم يأخذ حكمهم في التفاصيل الشرعية المتعلقة بغسل الميت والدفن، فعن النبي «صلى الله عليه وآله»: (من قُتِل دون أهله ظلماً فهو شهيد، ومن قُتِل دون ماله ظلماً فهو شهيد، ومن قُتِل دون جاره ظلماً فهو شهيد، ومن قُتِل في ذات الله «عز وجل» فهو شهيد) ^(٢٤) .

❁ الغاية السادسة :

مواجهة الفئة الباغية ضمن المجتمع الإسلامي، وذلك

وفق ما جاء في قوله «عز وجل»: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢٥).

فالأصل والخطوة الأولى هي الإصلاح بينهما بالعدل ووفق الموازين الشرعية، أو بالتراضي، ولكن في حالة إصرار طرفٍ منهما على الاستمرار في الصراع والقتال، فإنَّ الموقف الشرعي يستدعي ردَّ هذا البغي، إلى أن يقبل هذا الطرف بالصلح ويكفَّ عن القتال.

❁ البغي وخروج الحسين:

ويحلو للبعض أن يعتبر خروج الإمام الحسين «عليه السلام» نوعاً من البغي من خلال إصراره على القتال، على الرغم من الجهود التي بُذلت لكفِّه عن ذلك، وقبوله ببيعة يزيد، والدخول فيما دخل فيه الناس، حتى قالوا أن الحسين إنَّما قُتل بسيفِ جدِّه رسول الله «صلى الله عليه وآله»!

قال ابن حجر المكي في «المنح المكية» في ذكر يزيد بن معاوية: (قال أحمد بن حنبل بكفره، وناهيك به ورعاً وعلماً

يقضيان بأنّه لم يقل ذلك إلّا لقضايا وقعت منه صريحة في ذلك ثبتت عنده، وإنّ لم تثبت عند غيره كالغزالي، فإنّه أطال في ردّ كثير ممّا نسب إليه، كقتل الحسين، فقال: «لم يثبت من طريق صحيح أنه قتله ولا أمر بقتله». ثم بالغ) أي الغزالي (في تحريم سبّه ولعنه. وكابن العربي المالكي فإنّه نُقل عنه ما يقشعر منه الجلد، إنّه قال: لم يقتل يزيد الحسين إلّا بسيف جدّه! أي: بحسب اعتقاده الباطل أنّه الخليفة، والحسين باغ عليه، والبيعة سبقت ليزيد، ويكفي فيها) أي تحقق البيعة وصحة خلافة يزيد (بعض أهل الحل والعقد، وبيعته كذلك) أي تحقق فيها هذا الشرط (لأنّ كثيرين أقدموا عليها مختارين لها، هذا مع عدم النظر إلى استخلاف أبيه له، أمّا مع النظر لذلك فلا يشترط موافقة أحد من أهل الحل والعقد على ذلك.. وقول بعضهم: «لا ملام على قتلة الحسين، لأنّهم إنما قتلوه بسيف جدّه الأمر بسله على البغاة وقتالهم» لا يُعوّل عليه^(٢٦).

ولعل أقصر الطرق للرد على هذه الشبهة هو الرجوع إلى الخطبة التالية التي بيّن فيها الإمام أهم الأسباب التي دفعته

للخروج والإصرار على المواجهة، ولو كلفه ذلك نفسه وأهله وأصحابه، قال ابن عساكر: (لما استكفَّ الناس بالحسين) استداروا حوله كالحلقة (ركب فرسه ثم استنصت الناس) طلب منهم أن يُنصتوا له (فأنصتوا له فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي «ص» ثم قال: تَبَّ لَكُمْ أَيْتَهَا الْجَمَاعَةُ وَتَرَحَّأَ) حزناً وغماً (أحين استصرختمونا وَلِهين، فأصرخناكم مُوجِفين) مسرعين (شَحَذْتُمْ عَلَيْنَا سِيفاً كَانَ فِي أَيْمَانِنَا، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوكم وعدونا، فأصبحتم إلّبا على أوليائكم) مجتمعين حولهم على عداوة (ويداً عليهم لأعدائكم، بغيرِ عدلٍ رأيتموه بثّوه فيكم، ولا أملٍ أصبح لكم فيهم، ومن غير حَدَثٍ كان منّا) بانحراف أو ظلم (ولا رأيٍ يفيل فينا) أخطأنا فيه (فهلاً لكم الويلات إذ كرهتمونا تركتمونا والسيفُ مَشِيمٌ) لم يُسلّ وبقي في غمده (والجأش طامن) القلب ساكن وهو كناية عن عدم النهوض (والرأي لم يُستخف! ولكن استصرعتم إلينا كطيرة الدَّبَى) صغار الجراد (وتداعيتم إلينا كتداعي الفراش، قيحاً وحكة وهلوعاً وذلةً لطواغيت الأمة، وشُذَّاذ الأحزاب ونبذة الكتاب، وعُصبة الآثام، وبقية الشيطان، ومحرفي الكلام

ومطفتي السُّنن وملحقي العَهرة بالنَّسب، وأسف المؤمنين، ومزاح المستهزئين، الذين جعلوا القرآن عَصِين) متفرقاً فأخذوا ببعضه ونبدوا الباقي (لبئس ما قَدِّمت لهم أنفسُهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. أفهؤلاء تعضدون؟ وعنا تتخاذلون؟ أجل والله الخذل فيكم معروف، وشَجَّتْ عليه عروقُكم، واستأزرت عليه أصولُكم، فأفرعكم، فكنتم أخبثَ ثمرةِ شجرةٍ للناظر وأكَلَّةٍ لغاصب. ألا فلعنة الله على الناكثين الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلوا الله عليهم كفيلاً. ألا وإنَّ البغيَّ ابنَ البغيِّ قد ركز بين اثنتين، بين السِّلَّة) سل السيف والقتال (والذِّلَّة، وهيهات مِنَّا الدنيَّة، أباي الله ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وبطون طُهرت وأنوفٌ حميَّة ونفوسٌ أبيَّة أن تؤثر مصارع الكرام على ظئار اللثام). مراودتهم وفي نص آخر: طاعة اللثام (ألا وإني زاحف بهذه الأسيرة على قلة العدد وكثرة العدو، وخَذلة الناصر... ألا ثم لا تلبثون إلا ريث ما يُركب فرس) أي في فترة زمنية قصيرة (حتى تُدار بكم دور الرحا، ويُفلق بكم فلق المحور، عهداً عهداً النبي إلى أبي. فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم

عليكم غُمةٌ ثم اقصوا إليّ ولا تُنظرون. إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها إن ربي على صراطٍ مستقيم^(٢٧).

هذه هي الصورة الحقيقية للنهضة الحسينية، وهو قتال للدفاع عن الإسلام وعن النفس وعن المضطهدين..
ويبرز أمامنا السؤال التالي: هل كلُّ قتال باسم الإسلام ويرفع شعاراته هو جهادٌ في سبيل الله؟ هذا ما سنجيب عنه في القسم الثالث من البحث بإذن الله «عز وجل».



المصادر والتعليقات الختامية:

- ١- البقرة: ١٩٠.
- ٢- البقرة: ٢١٨.
- ٣- الجاثية: ١٤.
- ٤- النساء: ٩٧ - ٩٨.
- ٥- فصلت: ٢٦.
- ٦- البقرة: ٢١٧.
- ٧- البقرة: ١٩٣.
- ٨- الأنفال: ٤٧.
- ٩- الحج: ٤٠.
- ١٠- النساء: ٧٥.
- ١١- الحج: ٣٩.
- ١٢- النساء: ٧٥.
- ١٣- البقرة: ١٩٠.
- ١٤- البقرة: ٢١٧.
- ١٥- الحج: ٤٠-٤١.
- ١٦- الأنفال: ٦٠.
- ١٧- الحديد: ٢٥.
- ١٨- التوبة: ١٢-١٣.
- ١٩- التوبة: ١.
- ٢٠- التوبة: ٨-١٠.
- ٢١- التوبة: ٤.
- ٢٢- البقرة: ١٩٠.
- ٢٣- البقرة: ٢٥١.
- ٢٤- الرishهري: ميزان الحكمة، ج ٢، ص ١٥١٦.
- ٢٥- الحجرات: ٩.
- ٢٦- الميلاني: نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار، ج ٤، ص ٢٣٦-٢٣٧.
- ٢٧- ابن عساكر: ترجمة الامام الحسين، ص ٣١٧.

الجهاد . القسم الثالث

هل كلُّ قتال باسم الإسلام ويرفع شعاراته هو جهادٌ في
سبيل الله؟

فاليوم نجد رايات عديدة تُرفع، وأحياناً تتعاون في ما بينها،
وفي أحيان أخرى تتقاتل مع بعضها البعض بصورة أشرس
مما تقاتل بها العدو والمشارك، وكلٌّ يدعو إلى أميره وقائده.
فأيها يمثل جهاداً وقتالاً في سبيل الله؟ وهل يكفي للحكم

بشرعيّتها أن تقاتل عدوّاً محتلاً على سبيل المثال ؟
سنناقش الموضوع بغضّ النظر عن منشأ هذه الحركات
والقوى الموجودة اليوم على أرض الواقع، ومَن يحركها،
ودون الدخول في تفاصيل ما تمارسه من جرائم باسم
تطبيق الشريعة وغير ذلك .. فنحن نتحدث هنا فقط من
ناحية تجريدية نظرية.

✽ صفات القيادة :

القيادة - التي تريد أن تتّخذ من القتال في سبيل الله
وسيلةً للدفاع عن الإسلام والمسلمين والمقدّسات - لا بد
أن تتّصف بمجموعة من الأمور الهامّة جداً، وإلا فقدت أهليّة
القيادة تحت راية إسلامية، تمثّل من خلالها الإسلام وتدافع
عن مبادئه، وترفع شعاراته. ولعل من أهم تلك الصفات ما
يلي:

١- أن تكون قيادةً متشرّعة متفقّهة، تمتلك علماً شرعياً
بمستوى الاجتهاد الحقيقي، أو تستعين بفقهاء يمتلكون
المستوى العلمي العميق الذي يؤهّلهم للإفتاء في مجال
القتال والدماء وتبعات ذلك.

٢- أن تمتلك وعياً شمولياً لواقع المرحلة من الناحية السياسيّة والأمنية والاقتصادية والعسكرية، لا على المستوى المحلي فحسب، بل على المستوى العالمي، بلحاظ تعقيدات اللعبة السياسية الدوليّة وتداخلاتها الإقليميّة والعالمية.

٣- أن تتحلّى بالحكمة في التعامل مع الأمور والأحداث والمتغيّرات، فالتهور والعجلة والسطحيّة تُصيب أيّة قيادة في مقتل، وقد تترتب عليها الكثير من المعطيات السلبية التي لا تقف عند حدّ خسارة عسكرية ميدانيّة، بل تتجاوزها إلى تبعات خطيرة، من قبيل تمكين المحتل الأجنبي من رقاب المسلمين، أو تشويه صورة الإسلام، أو تنفيذ مخططات الأعداء بالنيابة عنهم ودون دراية بالأمر، وغير ذلك.

٤- أن تكون على مستوى المسؤولية، بحيث تدرك أن:

- القتال بما هو قتال، وسفك للدماء، واستعمال للقوة والسلاح ليس غاية، وله ضوابط وشروطاً وتشريعات محكمة، وعدم مراعاتها يوقع في نتائج لا تُحمد عُقباها. فعن أمير المؤمنين علي «عليه السلام» في ذم عقليّة الخوارج التي كانت ترى أن القتال بما هو

قتال أمر مطلوب: (سيوفُكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسُّقم، وتخلطون مَنْ أذنب بِمَنْ لم يُذنب)^(١) .

• الدعوة تسبق القوة، والهداية هي الأساس، ولا بد من استنفاد الوسائل والحجج، والاستعداد للإجابة على جميع الشُّبهات بالكلمة الطيبة وروح الرسالة بدلاً من روح السلطة والغلبة والقهر، ولا شرعية للقتال مع انفتاح طريق السلم في التعامل مع الوضع. فعن أمير المؤمنين علي «عليه السلام»: (بعثني رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى اليمن فقال: يا علي، لا تُقاتل أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله، لئن يهدي الله «عز وجل» على يديك رجلاً، خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمسُ وغربتْ)^(٢) .

• الجهود السلمية لولم تُؤتِ ثمارها، واستدعى الأمر الانتقال إلى مرحلة القتال والمواجهة العسكرية، فحينئذ تتخذ الأمور مجرى آخر بشروط وضوابط محدّدة. فعن الإمام الصادق «عليه السلام»: (كان رسول

الله « صلى الله عليه وآله » إذا أراد أن يبعث سَرِيَّةً دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول : « سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله، لا تغلوا) لا تخونوا (ولا تُمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلا أن تضطروا إليها. وأيما رجل من أدنى المسلمين وأفضلهم نظر إلى أحد من المشركين، فهو جار حتى يسمع كلام الله، فإن تَبِعَكم فأخوكم في الدين، وإن أبى فأبلغوه مأمناً، ثم استعينوا بالله عليه)^(٣) ، فالجهاد حركة رسالية، وليست مسألة مزاج أو ثارات أو أحقاد، ولا وسيلة شريرة لهدف شرير.

• الغدر في الجهاد أمر مرفوض بتاتا، ففي المروي عن أمير المؤمنين علي « عليه السلام » أنه قال : (مَنْ ائْتَمَن رجلاً على دمه، ثم خاس به) غدر به (فأنا من القاتل برئ، وإن كان المقتول في النار)^(٤) . وعن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله الصادق « عليه السلام » قال : (سألتَه عن قريتين من أهل الحرب، لكل واحدةٍ منهما ملك

على حدة، اقتتلوا ثم اصطلحوا، ثم إنَّ أحدَ الملكين
غَدَرَ بصاحبه، فجاء إلى المسلمين فصالحهم على
أنَّ يغزوا تلك المدينة؟ فقال أبو عبد الله «عليه السلام»:
لا ينبغي للمسلمين أن يغدروا ولا يأمرؤا بالغدر، ولا
يُقاتلوا مع الذين غَدروا...» (٥) .
فإلى أيِّ مدى تُدرك المجاميع القتالية وقياداتها والأفراد
المنضوون تحت إمّرتها هذه الأمور وتبنيها وتلتزم بها؟

❁ القيادة الفاقدة للشرعية:

أمّا عندما لا تتوفر مثل هذه الصفات والشروط في القيادة،
فهل سيُعتبر الجهاد والاشتراك في القتال مع هذه المجاميع
أمراً راجحاً أو واجباً؟

لاسيما بلحاظ أنها ستكون عُرضة لارتكاب الجرائم باسم
الجهاد، وتشويه صورة الإسلام على مدى أجيال وذلك
باسم الجهاد والقتال في سبيل الله وإعادة أمجاد الخلافة
الإسلامية، وتقديم المبررات لأعداء الإسلام للطعن فيه
وتحريف الإسلام عن حقيقته، وإلحاق الدمار بالمجتمعات
الإسلامية.

✽ الخوارج نموذجاً:

تاريخياً، بعد قضية التّحكيم، وانشقاق الخوارج، وهم يرفعون شعار لا حكم إلا لله، سعى الإمام علي «عليه السلام» على مدى أشهر، ومن خلال عدة أشخاص لدفعهم إلى العدول عن موقفهم، وأعطاهم الحق في المعارضة السياسيّة، ولكنه منعهم من الخوض في دماء المسلمين.

عن كثير بن نمر، قال: (دخلت مسجد الكوفة عشية جمعة، وعليّ يخطب الناس، فقاموا في نواحي المسجد يحكمون) أي يهتفون بلا حكم إلا لله وهو شعارهم منذ تمردهم في معركة صفين (فقال بيده: هكذا) وكأنه أشار إليهم بالسكوت (ثم قال: كلمة حقّ يراد بها باطل، حكم الله أنتظر فيكم. أحكم فيكم بكتاب الله، وسنة رسوله، وأقسم بينكم بالسّويّة، ولا نمنعكم من هذا المسجد أن تُصلّوا فيه، ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا) ^(٦).

جهود الإمام علي «عليه السلام» أثمرت من خلال التأثير على مجاميع منهم، وبقيت مجموعة مصرّة على موقفها، وبايعت في شوال من عام ٣٧ للهجرة عبدالله بن وهب الراسبي

الملقَّب بذي الثفنتان، لظهور آثار السجود على جبهته .
استمرَّ الإمام في محاولة ثني هذه المجموعة عن نيَّتها في القتال حتى آخر لحظة قبيل نشوب المعركة في النهروان، واستعمل في ذلك وسائل عديدة، ومبعوثين متعدِّدين، وخاطبهم بنفسه، ودعاهم إلى المحاججة، وأعلن استعداداه للرد على كل الشبهات التي تدور في أذهانهم، والاتهامات التي ألصقت به زوراً..

روى ابن أعثم من تلك المحاولات ما جاء في الخبر التالي :
(كتب إليهم علي «كرم الله وجهه» ... فأقبل عبدالله بن أبي عقب إلى الخوارج بالكتاب، حتى إذا صار إلى النهروان تقدم إلى عبد الله بن وهب الراسبي وهو جالس على شاطئ النهروان محتبِّ بحمائل سيفه، وحرقوق بن زهير إلى جانبه، ورؤساء الخوارج جلوس حولهم .

قال : فسلمَّ عبدالله بن أبي عقب، ودفع الكتاب إلى عبدالله بن وهب . فأخذه وفضَّه وقرأه عن آخره، ثم ألقاه إلى حرقوق فقرأه، ثم رفع رأسه إلى ابن أبي عقب فقال له : لولا أنك رسول، لألقيتُ منك أكثرك شعراً) أي لقطعتُ رأسك

(فمن أنت؟ قال: رجل من الموالي. قال: من أيّ الموالي أنت؟ قال: من موالي بني هاشم. قال: إني أظنك من هذا الرجل بسبب - يعني علي بن أبي طالب - فقال: أنا رجل من أصحابه.

قال: أفحلال أنت أم لا؟

قال: لا، بل حرام دمي في كتاب الله عزّ وجلّ.
فقال: ما أراك تعرف كتاب الله.

قال: بلى، إني لأعرف منه الناسخ والمنسوخ والمكي والمدني والسفري والحَضَري) ما نزل حال سفر النبي أو حضوره.
(قال: وتعرف الله حق معرفته؟

فقال: نعم، إني لأعرفه ولا أنكره، أو من به ولا أكفره.

قال: وبماذا عرفته؟

قال: برسوله وكتابه المنزل.

قال: صدقت. فأصدّقني ما تكون من علي بن أبي طالب؟
قال: أنا أخوه في الإسلام.

قال عبدالله بن وهب: أو مسلم أنت؟

قال: أنا مسلم والحمد لله.

قال : وما الإسلام؟

قال له ابن أبي عقب : إنّ الإسلام عشرة أسهم، خاب من لا سهم له فيها، شهادة أن لا إله إلا الله وهي المِلَّة، والصلاة وهي الفطرة....) ويترسل ابن أبي عقب في بيان ذلك .

(فقال عبد الله بن وهب : أيها الرجل ! إنّه حرّم علينا دمك، فخبّرني أعالم أنت أم متعلم ؟) وتبدأ سلسلة جديدة من الأسئلة التي يجيب عنها ابن أبي عقيل بكل وضوح ودقة ولما لم يجدوا إلى قتله سبيلاً تدخّل حرقوص مساعد الراسبي بحثاً عن ذريعة لقتله (فقال حرقوص : أيها الرجل ! إنك قد أوجبت على نفسك القتل ! قال : ولم ذاك؟

فقال : لأنك تولّيت قوماً كفروا بعد إيمانهم وأحدثوا الأحداث. فقال له ابن أبي عقب : أيها الرجل، إنك لم تبلغ في العلم ما يجب عليك أن تُفتش عن علم الإمام، ولكنّي أسألك عن مسائل يسأل صبياننا بعضهم بعضاً عنها في المكتب....) وبدأ ابن أبي عقب بطرح الأسئلة (قال : فتعجب القوم من كلام ابن أبي عقب وعلمه، ثم أجاب عبد الله بن وهب إلى علي بن أبي طالب جواباً....) ^(٧) .

بهذا المستوى والأسلوب كانت محاولات الإمام المُصنِّية لدرء القتال .. ومن جديد انشقت عن الخوارج أعدادٌ كبيرة اختارت المغادرة بلا قتال بعد أن اتَّضحت عندها الصورة، وتبيَّن لها الحق، وبقيت أخرى - بقيادة الراسبي - مصرَّةً على القتال .

صاح الراسبي: (يا ابن أبي طالب، لا نبرح من هذه المعركة أو تأتي على أنفسنا أو نأتي على نفسك، فابرز إليّ، وأبرز إليك، وذر الناس جانباً).

فلما سمع عليّ «عليه السلام» كلامه تبسّم وقال: (قاتله الله من رجل ما أقلّ حياءه! أمّا إنّه ليعلم أنّي حليفُ السيفِ وخدينُ الرّمحِ. ولكنّه قد يئس من الحياة، أو أنّه ليطمع طمعاً كاذباً. قال: ثم حمل الرجلُ عليّ عليّ «عليه السلام» وحمل عليّ عليه، فضربه عليّ بسيفه وقتله وألحقه بأصحابه. ثم التقى الجمعان وحمي الوطيس واشتد الجلاد، فما كانت إلا ساعة حتى صارت الحرورية كرماد اشتد به الريح في يوم عاصف^(٨) .

فقيادة مثل الراسبي الذي عُرف بذي الثفتان، إنما ترفع راية الإسلام، وظهرها إسلامي، وتنادي بتطبيق حكم الله،

ولكنها ذات عقلية فاسدة سطحية، وأفرادها مغترون بأنفسهم لا يتمسكون من الدين إلا بقشوره وبعض عناوينه.

✽ قصتهم مع ابن عطاء :

ولأبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال إمام ومؤسس مذهب المعتزلة خبر طريف مع الخوارج يعكس عقليتهم وسذاجتهم وجهلهم بأحكام الدين.

فقد روى المبرّد قال : (حُدِّثْتُ أَنَّ واصل بن عطاء أقبل في رفقة فأحسّوا بالخوارج، وكانوا قد أشرفوا على العطب) الموت مصيراً على يد هؤلاء الخوارج (فقال واصل لأهل الرفقة: إن هذا ليس من شأنكم، فاعتزلوا ودعوني وإياهم. فقالوا: شأنك. فقال الخوارج له : ما أنت وأصحابك؟ قال : مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله، وقيموا حدوده.

فقالوا: قد أجرناكم! قال : فعلمونا أحكامه. فجعلوا يعلمونه أحكامهم، وجعل يقول : قد قبلت أنا ومن معي. قالوا: فامضوا مصاحبين فإنكم إخواننا.

قال لهم: ليس ذلك لكم. قال الله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ

أَبْلَغُهُ مَأْمَنَهُ ﴿٩﴾ . فَأَبْلَغُونَا مَأْمَنًا . فساروا بأجمعهم حتى بلغوا الأَمْن) (١٠) .

ومن هنا شخص الإمام علي «عليه السلام» حالتهم كما جاء في الخبر التالي الذي رواه حبيب بن عاصم الأزدي حيث سأل الإمام «عليه السلام» قائلاً: (يا أمير المؤمنين، هؤلاء الذين نقاتلهم أكفار هم؟! فقال علي «عليه السلام»: من الكفر هربوا، وفيه وقعوا. قال: أفمنافقون؟ قال: إِنَّ المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قال: فما هم - يا أمير المؤمنين - حتى أقاتلهم على بصيرة ويقين؟ فقال علي «عليه السلام»: هم قومٌ مرقوا من دين الإسلام كما مرق السهم من الرمية، يقرأون القرآن، فلا يجاوز تراقيهم) (١١) . وهو تعبير مكرّر لما وصفهم به نبينا الأكرم محمد «صلى الله عليه وآله» قبل ذلك بعشرات السنين .

❁ احذروا الظاهر:

ولذا نلاحظ ما جاء في النصوص التالية من تأكيد حول أهمية دراسة المضمون، وعدم الاغترار بالعنوان والظاهر، والانسياق العاطفي وراء مثل هذه الدعوات الباطلة باسم الجهاد والقتال في سبيل الله:

١- عن محمد بن عبدالله السمندري قال : (قلت لأبي عبدالله «عليه السلام» : إني أكون بالباب - يعني باب الأبواب - فينادون السلاح، فأخرج معهم؟ قال : فقال لي : أرأيتك إن خرجت فأَسَرْتَ رجلاً فأعطيته الأمان وجعلت له من العَقْد ما جعله رسول الله «صلى الله عليه وآله» للمشركين، أكانوا يفون لك به؟ قال : قلت : لا والله جُعلت فداك، ما كانوا يفون لي به. قال : فلا تخرج. قال : ثم قال لي : أما إنَّ هناك السيف) ^(١٢) .

٢- عن الإمام جعفر بن محمد الصادق «عليه السلام» : (عن أمير المؤمنين «عليه السلام» : لا يخرج المسلم في الجهاد مع مَنْ لا يُؤْمِنُ على الحكم، ولا يُنْفِذُ في الشيء أمر الله «عز وجل») ^(١٣) .

٣- عن أبي حمزة الثمالي ثابت بن دينار قال : (قال رجل لعلي ابن الحسين «عليه السلام» :) وفي رواية أن اسمه عباد البصري (أقبلت على الحج وتركته الجهاد، فوجدت الحجَّ أيسرَ عليك، والله يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ

وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿؟﴾ فقال علي بن الحسين «عليه السلام»: اقرأ ما بعدها. قال فقرأ: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قال: فقال علي بن الحسين «عليه السلام»: إذا ظهر هؤلاء لم نُؤثر على الجهاد شيئاً^(١٤).

❁ دعاء الثغور:

قد يقول قائل: ألسنا نجد الإمام زين العابدين «عليه السلام» في هذا العهد بالذات قد دعا لأهل الثغور كما جاء في الصحيفة السجادية؟ أما كانت تلك القوات العسكرية تحت راية بني أمية؟ ألا يتناقض هذا مع ما جاء في الخبر السابق؟ والجواب عن ذلك يتمثل في فهم دوافع حديث الإمام، ومنطلق هذا الدعاء الرائع، فالتحفّظات التي طرحها الإمام زين العابدين بالإضافة إلى تلك الواردة في الأحاديث الأخرى المروية عن بعض الأئمة «عليهم السلام» ما جاءت لتفرّق الناس وتبعدهم عن الجهاد والقتال في سبيل الله «عز وجل»، بل لتحافظ على قوة هذا التشريع وسلامته.

فهو «عليه السلام» عندما دعا لأهل الثغور، إنما دعا للمقاتلين الذين كانوا يقاتلون أعداء الإسلام ويحمون المناطق الحدودية «الثغور» من عدوان الروم وغيرهم من الأمم، ولم يدع للمقاتلين الذين كانوا يمثلون إسناداً لبنى أمية.

أما عندما تحفّظ في الحديث على المشاركة في القتال، فكان تحفّظاً على الكون عنصراً في جيش بني أمية الذي يسعى لتوطيد حكمهم، لا الدفاع عن الإسلام ومقدّساته.

لقد كان الإمام زين العابدين «عليه السلام» يدرك حقيقة بني أمية، وهو الذي خرج مع أبيه الحسين «عليه السلام» إلى كربلاء، وعرف أهداف ثورته التي عرّى من خلالها واقع بني أمية، وخطر مشروعه المعادي للإسلام، وقد سمع أباه يكرّر في أكثر من مشهد منطلقات ثورته المباركة، ومن بينها ما جرى في منطقة «البيضة» القريبة من الكوفة، بعد أن تلاقى وجيش الحر بن يزيد الرياحي، فعن عقبة بن أبي العيزار قال: (إنّ الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحرّ بالبيضة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن رسول الله قال: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة

رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغَيَّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يُدخله مدخله». ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غير....^(١٥) .

وفي «ذي حُسم» قال «عليه السلام»: (.... إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت، وأدبر معروفها واستمرّت جداء، فلم يبقَ منها إلا صباية كصباية الإماء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون أنّ الحقّ لا يعملُ به، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه! ليرغب المؤمنُ في لقاء الله محققاً، فإنّي لا أرى الموتَ إلا شهادة) وفي نص آخر: إلا سعادة (ولا الحياة مع الظالمين إلا برماً)^(١٦) .



المصادر والتعليقات الختامية:

- ١- الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٢٣.
- ٢- الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٣٦.
- ٣- الطوسي: التهذيب، ح ٢٣١.
- ٤- الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٥١.
- ٥- ن.م.
- ٦- الهيثمي: مجمع الزوائد، ج ٦، ص ٢٤٢ - ٢٤٣.
- ٧- ابن أعثم: كتاب الفتوح، ج ٤، ص ٢٦٢ - ٢٦٧.
- ٨- الهاشمي: وقعة النهروان، ص ٦٣.
- ٩- سورة التوبة: ٦.
- ١٠- المرتضى: الأمالي، ج ١، ص ١٦٨.
- ١١- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٢٩٠.
- ١٢- الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ١٩٩٦٠.
- ١٣- ن.م. ح ١٩٩٦١.
- ١٤- ن.م. ح ١٩٩٥٩.
- ١٥- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٠٧.
- ١٦- ن.م.

أخلاق القوة

وجود القوة، آية قوة، يُغري بالاستعلاء والطغيان والاستكبار... قد يكون صاحب القوة فرداً، كما كان قارون الذي عاش الاستكبار، وتعبير القرآن: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾^(١)، والسبب في ذلك شعوره بالقوة: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾^(٢).

وقد يكون صاحب القوة مجتمعاً، كما تحدث بذلك القرآن الكريم عن قوم النبي هود «عليه السلام»: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾^(٣).

فهذا النمط من الأفراد أو المجتمعات يجد أنّ هذه القوة تلبّي رغبته الطبيعية لإثبات الوجود، بل والأفضلية على الآخرين، ومن هنا يسعى لكي يتناغم مع هذه الرغبة من خلال الطغيان والاستكبار.

✽ فلسفات متطرفة:

بعض الفلسفات المتطرفة تسعى لاستغلال مثل هذه الرغبة، فتغذيها وتزخرفها وتزيّنها وتقدمها على أنها هي الوسيلة التي من خلالها تتقدم البشرية، لأن الحياة - بحسب هذه الفلسفات - صراعٌ بين الأقوياء والضعفاء، ولا عزاء للضعفاء..

فإنّما أن يتحوّلوا إلى وسيلة لخدمة الأقوياء وتحقيق الغايات «الكبرى» لجماعاتهم قهراً وذكلاً، وإما أن يُفَنّوا من الأرض، إذ لا يستحق الحياة - بحسبها - إلا الأقوياء.

ونتيجة هذه الفلسفات المشحونة بالنظرة الاستعلائية

المتطرّفة لجنسٍ معين «كالأريّة عند النازيين»، أو قوميّةٍ «كالعربية أو التركية»، أو لحزبٍ سياسي «كالبعثيّة»، أو لوطنٍ «كالفاشية عند الإيطاليين»، أو حتى لدين من الأديان «كاليهودية»، عانت البشرية ويلات الحروب الكبرى، ومنها الحروب العالمية التي حصدت أرواح الملايين من البشر.

✽ الشحن المذهبي:

وهنا لابد من التنويه إلى ما تقوم به بعض مفردات الخطاب الديني في الدائرة الإسلامية عموماً من شحن طائفي، قد يعمل أحياناً على تصوّر الفرد أن الامتياز الذي ناله بالانتماء إلى ذاك الدين أو هذا المذهب امتيازٌ شخصي يُشبع غروره، ويلبّي رغبته الشخصية في إثبات الذات والتفوق على الآخرين.

وبالتالي يتحول الانتماء إلى وسيلة للاستعلاء، ومن ثمّ احتقار سائر الناس ممن لا يشاركونه الانتماء ذاته، لينتهي إلى التعصّب.. وقد نبّه الإمام علي «عليه السلام» إلى العلاقة بين الاستعلاء والاحتقار والتعصّب حيث قال: (الحمد لله الذي لبس العزّ والكبرياء، واختارهما لنفسه دون

خلقه، وجعلهما حمى وحرماً على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده. ثم اختبر بذلك ملائكتَه المقربين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: ﴿إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه وتعصب عليه لأصله، فعدوا لله إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وادّرع لباس التعزّز، وخلع قناع التذلل... فاحذروا عبادَ الله عدوّ الله أنْ يُعديكم بدائه، وأنْ يستفزّكم بخيله ورجله، فلعمري لقد فوّق لكم سهم الوعيد، وأغرق بكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب) كنايات عن ترصد إبليس بالإنسان وتأثيره الشديد عليه (وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قَدْفاً بغيب بعيد، ورجماً بظنٍّ غير مُصيب، فصدّقه به أبناء الحمية، وإخوان العصبية وفرسان الكبر والجاهلية) ^(٤).

كما قد يدفع ذلك كله إلى استعمال القوة لإلغاء الآخر من الوجود الاعتباري والحقوقى بعدم الاعتراف به كـمكوّن من مكوّنات المجتمع، أو لإلغائه من الوجود الحقيقي بالإبادة على أساس الانتماء!

بالطبع فإن الاعتزاز بالانتماء أمر طبيعي، ولكن أن يتحوّل هذا الانتماء إلى عدااء تجاه الآخر المختلف، فهو ما يجب التصدّي له ومعالجته، لأنّ هذا الاستعلاء والاحتقار يولّد حالة من التوتر المستمر بين الأطراف، ويوجد حاجزاً نفسياً عند الطرفين المختلفين في الانتماء من التعامل الإنساني الطبيعي، كما يُفقد المنتمي إلى الإسلام أو المذهب القدرة على تقديم دينه أو مذهبه إلى الآخرين.

وهذا خطأ جسيم يقع فيه الخطاب الديني حين يقدّم المادة قاصرة في الدلالة، ويقع فيه المتلقّي حين يترجم تلك المادة إلى سلوك عملي. ومن هنا نجد أن الإسلام:

١- شدّد على ضرورة التعامل بحذر مع حالات امتلاك القوة، كفرد أو مجتمع.

٢- أكّد على الموقف الحاسم الرافض لاستعمال القوة

في أي سبيل من سبل الفساد والعدوان لمجرد تلبية مزاج شخصي أو تحقيق أطماع ذاتية.

٣- حرص على توظيف نعمة القوة ضمن إطار الإيمان والعدالة والعيش المشترك القائم على الاحترام والتكامل.

✽ تدابير فكرية وعملية:

ولتحقيق هذه الغاية اتخذ الإسلام عدّة تدابير:

أولاً: ترسيخ حقيقة القوة المطلقة التي يتّصف بها الله عزوجل، فهو العزيز القوي القدير الذي لا حدّ لقوته ولا نهاية لقدرته. والإيمان الواعي والعميق بهذه الحقيقة يمنع الإنسان من الاستسلام للنوازع الشخصية المريضة التي تدفعه للاستعلاء، لأنّه يدرك حينها أنّ القوة المطلقة لله فوق قوته، وأنّ قوّته ضئيلة جداً، بل هي لا شئ أمام صاحب القوة المطلقة.. فيتضاءل ويخشع أمام ذلك كله، ويمتنع حينئذ عن ممارسة الظلم والشعور بالاستكبار على الناس.

ولذا يقدّم القرآن صور نزول العذاب المدمّر - في فترة زمنية قصيرة - بالمجتمعات التي طغّت واستكبرت على الله وعلى الناس: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ

الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ، وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ، الَّذِينَ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمِرْصَادِ ﴿٥﴾ .

كما قدّم صورةً مستقبليةً لما سيجري في الآخرة حيث سيعترف المستكبرون والظالمون - يوم القيامة - بالعجز أمام قوة الله «عز وجل»: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ ﴿٦﴾ .

وهكذا أسهبت الأحاديث الشريفة في عرض تبعات هذا النوع من الظلم، لاسيما النتائج المترتبة على ظلم من لا يجد لنفسه ناصرًا إلا الله. ومن نماذج ذلك ما روي عن الإمام علي «عليه السلام» عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (يقول الله «عز وجل»: اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد ناصرًا غيري) ﴿٧﴾ .

ثانيًا: ذم وشجب الأفراد والجماعات التي تعمل على توظيف قوتها من أجل تسخير الآخرين لخدمتها ظلمًا وعدوانًا، وتقديم صور تاريخية تبين الموقف من ذلك، من قبيل ما

جاء في قصة فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٨) ، وفي قصة عاد: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾^(٩) .

فالأساس في التنوع البشري كما ذكرت في بداية بحث الجهاد هو التعارف والتكامل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(١٠) .

وأما الحديث القرآني عن أن التباين بين الناس في القدرات الذهنية والعضلية والمالية وغير ذلك إنما يأتي من أجل التسخير: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾^(١١) . فلا يتعارض ما ذكرناه قبل قليل، لأن التوازن الطبيعي في الحياة يفرض اختلاف الناس في مواردهم وطاقاتهم ومواقعهم وحاجاتهم وتنوعهم في المهمات والأدوار، وهذا الارتفاع المذكور في الآية هو من قبيل أهمية وجود مدير ونائب مدير ومراقب ورئيس قسم وموظف وخادم وحارس في مؤسسة ما.

فهذه العناوين لا ترفع قيمة الإنسان من الناحية الروحية،

بل هو تباين تنظيمي وحاجة طبيعية لاستمرار الحياة، لا أكثر.. لأنّ الذي يرفع القيمة من الناحية الروحية هو التقوى كما قررت ذلك الآية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١٢). ثم إنّ هذا التسخير المذكور في الآية تسخير ضمن القوانين والنظم وبمقابل، لا التسخير القائم على الظلم والعدوان.. فالتاجر يُسخر العامل كي يُنجز له عملاً، والعامل يسخر المعلم كي يدرّس ابنه، والمعلم يسخر المهندس كي يبني له بيته .. وهكذا. أما التسخير المذموم والممنوع فهو الذي يكون عدواناً وبغير رضا الطرف الآخر.

ولذا جاء في الحديث النبوي: (أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه)^(١٣) .. وقوله «صلى الله عليه وآله»: (قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: ... ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يُعطه أجره)^(١٤).

ثالثاً: تقديم صورة سلبية عن الذين يعيشون الزهو والاستكبار، ويحاولون التعبير عن ذلك بصورة استعراضية، إذ تسخر منهم الآية القرآنية بكشف حقيقة قوتهم: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ بقدميك حين تمشي عليها،

ولا بيديك العاريتين حين تحفر بهما، بينما تستطيع دودة أن تحفر في أعماق الأرض دون أن تمتلك ما تمتلكه أيها الإنسان المغرور من قوة عضلية وطول وعرض ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾^(١٥).. فلم كل هذه الغطرسة؟

✽ طغيان يزيد:

وقد عملت العقيلة زينب «رضوان الله عليها» على تأكيد هذه الحقيقة حين وقفت موقفها البطولي الشجاع في الشام، أمام يزيد الذي كان يعيش زهو الانتصار وطغيان الاستكبار.

فإن كان فرعون مستكبراً لا متداد ملكه في مصر: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾^(١٦)، فإن حدود الدولة الإسلامية التي كان يحكمها يزيد امتدت من الجزائر الحالية إلى أفغانستان عرضاً، وكان مدخولها الاقتصادي يفوق ما كان تحت يد فرعون أضعافاً مضاعفة.

طغى يزيد، وانعكس طغيانه واستكباره وشعوره بالقوة في مشاهد عديدة حين تعامل مع أسارى أهل بيت النبوة بعد

استشهاد الإمام الحسين «عليه السلام»، من بينها:

١- أسلوب التعامل مع الأسرى، ففي الخبر: (... ثمّ أتى يزيدُ بن معاوية بثقل الحسين ومن بقي من أهله ونسائه، فأدخلوا عليه، قد قرنوا في الحبال، فوقّفوا بين يديه) ^(١٧).

٢- كلماته وأشعاره الاستعلائية والساخرة، قال الألوسي في تفسيره (روح المعاني): (... إنّ السبي لمّا ورد من العراق على يزيد، خرج فلقي الأطفال والنساء من ذرّيّة عليّ والحسين «رضي الله تعالى عنهما»، والرؤوس على أطراف الرماح، وقد أشرفوا على ثنيّة جيرون، فلمّا رأهم نعب غراب، فأنشأ يقول:

لَمّا بدت تلك الحمول وأشرفت

تلك الرؤوس على شفا جيرون

نعب الغراب فقلتُ: قل أو لا تقل

فلقد قضيتُ من النبيّ ديوّني

يعني إنّّه قتل بمن قتله رسول الله «صلى الله عليه وآله» يوم بدر، كجده عتبة وخاله ولد عتبة وغيرهما، وهذا كفر صريح، فإذا صحّ عنه فقد كفر به. ومثله تمثّله بقول عبدالله بن الزبعرى قبل إسلامه: ليت أشياخي...) ^(١٨).

٣- استهزأه برأس الحسين «عليه السلام»، فعن الإمام علي زين العابدين «عليه السلام» أنه قال: (لَمَّا أُتِيَ برأس الحسين «عليه السلام» إلى يزيد، كان يَتَّخِذُ مجالس الشرب ويأتي برأس الحسين فيضعه بين يديه ويشرب عليه) ^(١٩).

وروى ابن نما الحلّي: (.... وكان يزيد يَتَّخِذُ مجالس الشرب واللّهو والقيان والطرب، ويُحْضِرُ رأس الحسين بين يديه) ^(٢٠). وأضاف ابن سعد: (.... ثمّ قال بالخيزرانة بين شفتيّ الحسين، وأنشأ يقول:

يفلّحن هاماً من رجال أعزّة

علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما) ^(٢١).

وعن يزيد بن أبي زياد، قال: (لَمَّا أُتِيَ يزيد بن معاوية برأس الحسين بن عليّ، جعل ينكت بمخصرة معه سنّة) أي أسنان الحسين (ويقول: ما كنت أظنّ أبا عبد الله يبلغ هذا السنّ) ^(٢٢).

٤- طبيعة المجلس المنعقد في بلاطه، ففي الخبر: (... ولمّا جلس يزيد بن معاوية، دعا أشراف أهل الشام فأجلسهم حوله، ثمّ دعا بعليّ بن الحسين وصبيان الحسين ونسائه، فأدخلوا عليه والناس ينظرون) ^(٢٣).

وعن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه «عليه السلام» أنه قال :
 (...) ثم وُضع الرأس في حُقَّةٍ وأُدخل على يزيد، فدخلت
 معهم، وكان يزيد جالساً على السرير وعلى رأسه تاج مُكَلَّلٌ
 بالدُّرِّ والياقوت وحوله كثير من مشايخ قريش^(٢٤)) .

وفي «تهذيب الكمال»: (... فلَمَّا قَدِمُوا) أي الأسارى من
 أهل البيت (عليه، جمع مَن كان بحضرته من أهل الشام، ثم
 أُدخلوا عليه، فهناؤه بالفتح)^(٢٥) .

✽ دور العقيلة زينب:

أما العقيلة زينب ابنة أمير المؤمنين علي «رضوان الله عليها» فقد
 فضحت ذلك الزخرف الباطل فقامت وقالت: (الحمد لله
 رب العالمين وصلى الله على رسوله وآله أجمعين، صدق
 الله كذلك يقول ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوَاىَ أَنَّ
 كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤْنَ﴾^(٢٦) .

أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق
 السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا على
 الله هواناً وبك عليه كرامة؟ وأن ذلك لعظم خطرك عنده؟
 فشُمُخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسروراً، حين

رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة، وحين صفا لك
ملكنا وسلطاننا؟

مهلاً مهلاً أنسيت قول الله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا
إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ^(٢٧) ؟

أَمِنَ العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك
وسوقك بنات رسول الله سبايا، قد هتكت ستورهن وأبديت
وجوههن تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهن
أهل المناهل والمناقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد،
والدني والشريف، ليس معهن من رجالهن ولي، ولا من
حُماتهن حمي؟

وكيف يُرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأذكياء، ونبت
لحمه بدماء الشهداء؟ وكيف يُستبَطَأ في بُغضنا أهل البيت
من نظر إلينا بالشَّنَف والشنآن، والإِحن والأضغان؟ ثم تقول
غير متأثم ولا مستعظم:

وأهلُّوا واستهلُّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل
منتحياً على ثنايا أبي عبد الله سيد شباب أهل الجنة،

تنتكها بمخصرتك! وكيف لا تقول ذلك؟ وقد نكأت القرحة
واستأصلت الشأفة، بإراقتك دماء ذرية محمد «(صلى الله عليه وآله)
ونجوم الأرض من آل عبد المطلب، وتهتف بأشياخك زعمت
أنك تُناديهم! فلتردنَّ وشيكاً موردَهم، ولتودنَّ أنك شللت
وبكمت، ولم يكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت.

اللهم خذ بحقنا، وانتقم من ظالمنا، وأحلل غضبك بمن
سفك دماءنا وقتل حماتنا. فوالله ما فريت إلا جلدك، ولا
جززت إلا لحمك، ولتردنَّ على رسول الله بما تحملت من
سفك دماء ذريته، وانتهكت من حرمة في عترته ولحمته،
حيث يجمع الله شملهم ويلم شعثهم، ويأخذ بحقهم،
ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء
عند ربهم يُرزقون، حسبك بالله حاكماً، وبمحمد خصيماً
وبجبرئيل ظهيراً، وسيعلم من سوى لك ومكنك من رقاب
المسلمين، بئس للظالمين بدلاً، وأيكم شرُّ مكاناً وأضعف
جنداً.

ولئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك إني لأستصغر قدرك،
وأستعظم تقريعك وأستكبر توبيخك، لكن العيون عبرى،

والصدور حَرَى. ألا فالعجب كلَّ العجب لقتلِ حزبِ الله
النجباء بحزبِ الشيطانِ الطُّلقاء، فهذه الأيدي تنطفُ من
دمائنا، والأفواه تتحلَّب من لحومنا، وتلك الجثث الطَّواهر
الزواكي تنتابها العواسل) الذئاب (وتعفوها أمَّهات الفراعيل)
أولاد الضِّباع.

ولئن اتخذتْنا مغنماً لتجدنَّا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلا
ما قدَّمت وما ربُّك بظلام للعبيد، فإلى الله المشتكى، وعليه
المُعَوَّل، فكِد كيدك واسعَ سعيك، وناصب جهْدك، فوالله لا
تمحو ذِكرنا، ولا تُميت وحيناً، ولا تُدرِك أمدنا، ولا ترحضُ
عنك عارها.

وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد، وجَمْعك إلا بدد، يوم
ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين، فالحمد لله الذي
ختم لأوَّلنا بالسعادة ولاخِرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله
أن يكمل لهم الثواب، ويوجبَ لهم المزيد، ويُحسِنَ علينا
الخلافة، إِنَّه رَحِيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل^(٢٨).

لقد عملت العقيلة زينب «رضوان الله عليها» بكلماتها تلك على
تعرية الواقع، ورسم صورة واضحة للتمييز بين مَنْ يُمثَّل

الإسلام في حقيقته من خلال الالتزام بتعاليمه وشريعته وأخلاقه، وبين من يُعادي الإسلام ولا يلتزم بشرائعه وأخلاقياته ويستعمل القوة التي يمتلكها والموقع المتقدم الذي يتسنّمه من أجل أن يُحارب الإسلام ورجالاته.



المصادر والتعليقات الختامية:

- ١- سورة القصص: ٧٦.
- ٢- سورة القصص: ٧٨.
- ٣- سورة فصلت: ١٦.
- ٤- الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.
- ٥- سورة الفجر: ٦-١٤.
- ٦- سورة البقرة: ١٦٥.
- ٧- المازندراني: شرح أصول الكافي، ج ٩، ص ٣٦٠.
- ٨- سورة القصص: ٤.
- ٩- سورة الشعراء: ١٣٠.
- ١٠- سورة الحجرات: ١٣.
- ١١- سورة الزخرف: ٣٢.
- ١٢- سورة الحجرات: ١٣.
- ١٣- ابن ماجه: السنن، ح ٢٤٤٣.
- ١٤- القاري: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ح ٢٩٨٤.
- ١٥- سورة الإسراء: ٣٧.
- ١٦- سورة الزخرف: ٥١-٥٢.
- ١٧- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٦، ص ٤٤٨.
- ١٨- الألويسي: روح المعاني، ج ٢٦، ص ١٠٩.
- ١٩- ابن طاووس: اللهوف، ص ٦٩.
- ٢٠- ابن نما الحلّي: مثير الأحرار، ج ٤، ص ١٧.
- ٢١- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٦، ص ٤٤٧.
- ٢٢- ن. م. ص ٤٤٨.
- ٢٣- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٣٩.
- ٢٤- الخوارزمي: مقتل الحسين، ج ٢، ص ٦١.
- ٢٥- المزي: تهذيب الكمال، ج ٦، ص ٤٢٩.
- ٢٦- سورة الروم: ١٠.
- ٢٧- آل عمران: ١٧٨.
- ٢٨- ابن طاووس: اللهوف، ص ٨١، ورويت بألفاظ مختلفة في عدة مصادر مثل بحار الأنوار للمجلسي، ج ٤٥، ص ١٣٣، والاحتجاج للطبرسي، ج ٢، ص ١٢٢.

